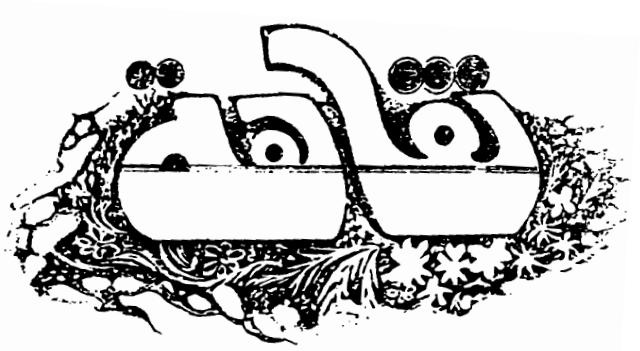

مأساة هزلية .

- أحياناً ننتظر النور الأخضر .
- فيض من خواطر
- وضاع تفاؤل ربيع العمر
- تسهيلات حركية لاستيراد الأفكار

نقاهة

حياة الإنسان بين يدى المولى القدير ، هو خالقها ومقدرها مصيرها .. وهو يسخر من البشر من يحاولون شفاء المرضى ، وقد ينجحون .

وفى حالة أحمد صارت عمليات كثيرة تناولت أجزاء من جسمه ، وطال الوقت على المعالجين وعلى المنتظرين ، أما هو فلم يحس شيئاً .

وقد كنا معه فى غيبوبته التى طالت أثناء إجراء العملية أو العمليات ، ثم إلى غرفة إنعاش ثم إلى سريره حتى بدأ يتلمس شيئاً من الوعى الخفيف ، مع بداية ظهور آلام طفيفة أراد جسمه أن يفصح عنها بعد الزوال التدريجى لتأثير المخدر .

وفى اللحظة الأولى ظن أنه فقد ذلك الرجل الغامض ؛ ولكنه كان وراءة بطربوشه الداكن وبوجهه غير واضح القسمات . وأطل ببصره من النافذة ، والشمس باسمة وأشرعة الفلك فى كل الشراعة ترتفع ممتلئة بالرياح وهى تهنئه .

قلت : صار إبرار علمى وعقلى وتكنولوجى عليك ، وعلى أيد عالمة وجادة . قال : جميل أن يعود الواحد إلى وعيه بعد أن جال فى الماضى والحاضر والمستقبل . . . . هكذا نعرف عما يحدث فى غيبوبة .

ماساة هزلية

وقد عاد أحمد إلى وعيه فى كثير من الشئ ، وقال بعد أحاديث جانبية طوفت فى موضوعات شتى ، قال : ياصديقى وزميل دراستى ، ما سوف أقوله أنت عالم به بعد دراستك بالداخل والخارج . كنت أحس فى وقت مضى فى داخلى معانى حريفة تفور فى غضب ، وهذا فى حد ذاته أول السلم للتطوير والتغيير . ولكننى أراك شديد الاهتمام بالقيم وبالإنسان الإدارى وبالعلاقات الإنسانية ، وأنك تولى عملية الإدارة وديناميتها اهتماماً كبيراً . والحق معك ، فما تقدمت الدول بدون جهاز إدارى شديد التكامل والفاعلية . ويتم هذا أولاً بالتخلص من أساليب رتيبة روتينية تقتل سرعة العمل وتطفئ الابتكارية ، وتضفى على العمل إحساس الخوف الجبان ، فيكون تعثر . . . ويصير المثل المعروف : لا تفعل شيئاً ، إذن فلن تخطئ ولن تحاسب ولن تساءل . أما أن تحاول سلوكاً عاقلاً منطقياً للصالح العام ، وفى جرأة صدق النية ، لا : حذار الباشكاتب لك بالمرصاد وربما تضار . وربما تحولت بعض المصالح الحكومية والقطاع العام إلى سلخانة تذبح فيها محاولات التخلص من الرتابة والروتين !! .

يحفظ قوم كثيرون اللوائح والقوانين ، بنصوصها لا بروحها ، وهذا الحفظ هو مؤهلهم الأول فى دنيا العمل ، يستكمل بابتسامة الرضى من الباشكاتب أو رئيس القسم ، أو مساعد رئيس القسم ويحس الأخ أنه على الخط . وما دامت الأمور لا تحيد عن القوانين والإمضاءات فى أماكنها ، وما أكثرها ، ثم ختم النسر يتوج كل هذا ، والابتسامات سارية . . . فليذهب كل إلى بيته ، ويفكر فيما سيأكل وكيف يمضى عصره ومغربه ومساءه ، وربما أسهم باقتدار شديد فى زيادة عدد السكان وصحته النفسية حسنة جداً . . حتى يكون لابنه فى عام ٢٠٠٠ فرصة أكبر لاتباع الروتين

وخاتم للنسر !!! هؤلاء قوم معهم قوة — محدودة — ولكنها قوة ، يومهم كأمسهم كغدهم . . . . . وكل شئ هادئ :

التربية قوة مسئولة . عندما يتولى إدارى منصباً كرئيس لمؤسسة أو شركة أو منطقة تعليمية . . . إلخ ، يسعده الكرسى سعادة كبيرة ، فقد صار له سلطان ، وهو لا يعلم أن بعض السلاطين ماتوا إما على أسرتهم أو فى حارات ضيقة ، بل إن بعض من ماتوا على أسرتهم كانت خناجر فى صدورهم أو كان سم هتك بأحشائهم وقلة ماتوا ميتة ربهم . ولا يحدث هذا اليوم ، فقد صارت مدنية والقتل فيها له أساليب أخرى ، منها القتل المعنوى وربما قلت الخناجر وصار الحصول على السم صعباً ، وأجهزة الأمن — ولله الحمد — قادرة على حسن التقصى . إن القتل المعنوى أشد وأنكى ، لأن المقتول يرى نفسه وهو يقتل بالتقسيط غير المريح .

نادى الإسلام بكل العزة بالشورى ، وتصبح القضايا المطروحة محل نقاش ، لا كبير ولا صغير ؛ والكل سواسية . لكن عندما تصبح الأدارة — عند البعض — جاهاً يعطى صاحبها مجداً ، فهنا لن يكون تقدم ولا ترقى ، بل مزيد من الانتكاسات الإدارية والتنفيذية . وربما يسعد البعض سعادة كبيرة أنه أصبح قادراً على إصدار أوامر وقرارات وتاه فى نشوة هذه السلطة ، واستمرأ العيش فى عسل بحرها وصار عليه أن يتأكد من استمراره فى سباحة هذا البحر . . . وأنا أرى أن هذا بحر من عسل مر . ولكى يستمر عليه ألا يغضب الرؤساء ، وإلا سحبوا العسل من البحر ورأى ووجد نفسه على قاع جاف ، بل ربما فيه أشواك . لهذا فهو يسارع يسترضى رئيسه ، والذى بدوره يسترضى رئيسه وتتحول المسائل فى بعض الإدارات إلى مسابقات فى أعمال مظهرية ، لا جوهرية ولا تخدم الصالح العام ؛ وإنما تستجلب الرضى .

خذ هذا المثال : افتح جريدة يومية فى الصباح ، وتوقف عند صفحة الوفيات ، واقرأ عن وفاة قريب بعيد لرئيس مجلس إدارة ما . واقرأ كم نعياً احتلت مساحات كثيرة . وعلى بعد بوصتين أو ثلاثة خبر وفاة ابن رئيس مجلس إدارة سابق ولا نعى ولا ذكر . . . ستقول أبلغ مما يمكن أن أقوله ، وتضرب كفاً على كف . . . وتحزن ، لكن لا تحزن كثيراً فربما أنت فاعل كما فعله العاملون لرئيس مجلس إدارة شركة . . . تعمل فيها ! ! .

عند ما تنتج التربية أفراداً فى مواقع قياديه همهم الأول المزيد من صعود السلم ، والغاية تبرر الواسطة ، هنا تقول : هذه طامة مؤسفة . منذ سمعت أن موظفاً كبيراً استقال بإرادته لخلاف فى الرأى مع رؤسائه ؟ لو قرأ البعض هذا الخبر فى جريدة لقالوا : مغفل هذا الموظف ! ! يعنى ، هل هو سيصلح الكون ؟ .

الإصلاح يتم بالأفراد الشجعان فى الحق وفى الخير :

سمة الطماعى أنه يعمل لنفسه وذاته . ليس عيباً أن يكون عند الفرد طموح ، وهذا أمر طبيعى ، لكن له أسساً خلقية سليمة تبعده عن الكذب والطمع وتدبير المؤامرات على الغير ، وتكوين جبهات صغيرة (شال) : أعود للشورى ، إذ يحدث فى بعض المجتمعات أن تزيف معانى الشورى (يسميها البعض الديموقراطية . . . . فى معنى ما) ، وتتحول معانيها النبيلة إلى شعارات براقة . . . وتحس أن الطبل أجوف إلا من زلف أصحاب المصالح الخاصة . . . . وربما رغبة فى استرضاء الغير تقتل الحقيقة العلمية والقول الصادق الأمين ، لهذا ترجع بعض المجتمعات القهقرى ، وغيرها تقفز تقدماً ، بعض المجتمعات تتقدم إلى الوراء . وهذه مأساة هزلية أبطالها (الرجال) ، ومسرحها (المجتمع) ، كتبها (التكالب) ، ألف موسيقاها (الانتهازى) ، وصمم مناظرها (النفاق) . أما المخرج فهو

(تلك القوى الأجنبية والمحلية عبر عشرات وعشرات من السنوات) . وكانت دائماً تبتسم راضية فى قناعة ، فالستار يرفع كل صباح ومساء ، والنجاح مستمر ؛ فالمسرحية ناجحة منذ مئات السنين بدأت منذ عام ١٥١٦ م . مرت أثناءها فى حالات من الركود النسبى ، ولكنها كانت تعود إلى نجاحها . . . . وتنبه نقاد المسرح لها فأوسعوها فى السنوات القلائل الماضية ضرباً وتجريحاً . . . . وما النتيجة ؟ .

* * *

ونحن فى هدوء حجرة المستشفى المريحة ، والنيل يتدفق بعطائه ، وأشعة الشمس الحانية تنساب إلى الحجرة فى محبة ، أسأل (أحمد) فى كل التساؤل : لماذا هذا الاهتمام الغاضب بالإدارة والإداريين ؟ وبالعلاقات الإنسانية ؟ .

وشئ من التفكير التأملى ، ثم رد الكرة إلىّ بنفس السؤال ، قلت : تعلمنا ونعلّم أن نجاح أى مشروع بعد تحديد أهدافه وأغراضه والتخطيط له وبداية التنفيذ يتوقف على الفنيين والإداريين ، والإمكانات المادية ، فيتبقى الجهاز الإدارى الذى ينظم ويشرف على العملية التنفيذية . وهنا يقع الخطأ الذى قد يفسد العمل الجاد المسهم المطور .

يحدثنا علم النفس عن السادية وجنون العظمة . وأرى هذه وذاك فى بعض ما يجرى مما يفقد العمل جديته وعطاءه . وأرى ذاتية تنحى الموضوعية فى إصدار قرارات سليمة ، ويصبح الأمر فوضى ولدتها إرهاصات توهجية أطاحت بأنبل القيم الإدارية . إن مقولة الرئيس الإدارى أحكم وأعلم من مرؤسيه أجهضت الكثير من المشروعات البناءة . . . . وصار الأمر تحقيقاً لأنانية لا يرتضيها أى عرف أخلاقى .

ضعيف هذا الذى لا يعترف بخطأ وقع فيه ؛ بل هى شخصيته فى

تكاملها تهتز ، وإن بان على السطح ناجحاً ؛ وتصور أن له شخصية قوية . هى قوية فى نظره هو ، وفى نظر الساعين إلى رضائه ليضمنوا استمرار العطاء وأكل العيش .

ليس بهذا تتقدم المجتمعات ، وليس بهذا يكون النجاح . وإنما يتطور الأمر إلى — كما قلت أنت — تقدم إلى الوراء . وهذا يحدث فى حالات كثيرة بين المثقفين ؛ بل من كبار المثقفين . أسى وللأسف .

يقول أحمد : كنت معى فى غيبوبتى ، وكان معى هذا الرجل الغامض ، وأمسكت بإحساساتى وعشتها ، وقد انفتح قلبى وعقلى ، وصار شريط من ذكريات من الماضى ، ولمحة عن مستقبل ، ويصير الأمر إلى تعقيد شديد يدعو بالقوة إلى تفكير جادفى قضية التعليم ، ويدلى فرد بدلوه . . . وتتكاثر الدلاء ، فى ماء البعض تفاؤل ، وفى أخريات تشاؤم ، ولكن الماء موجود . والجدل مفيد إذا كان تفكيراً وحواراً يدور ، ونرجو ألا يطول الحوار . الأمر الهام أن هناك الأمر شورى ؛ والأحكام للصالح العام :

قلت : يا أخى أحمد سمعت والمعهدة على الراوى ، أنه فى مجتمع ما على ظهر كوكب الأرض أنه صار قول من كبير أن المدرسة ذات الفصل الواحد أمر رائع ، وكان هرج وهيص ، وتهافت سريع من المرؤسين ، وفيه علم غير كثير : وقيل إن مسئولاً سيزور ، فجمعوا أطفالاً من صفوف مختلفة رصوهم رصاً فى حجرة واحدة وأمامهم معلم يدرى من التمثيلية القليل . وكانت مأساة هزلية ، أرضت المسئولين . . . للأسف : ربما حدث هذا فى مجتمع متخلف ، لأنه متخلف .

احيانا ننتظر الضوء الأخضر

وحتى يكون تفكير مبنى على أصول وأسس . والمقصود هنا أن نفكر تربوياً فى موضوعية بعيدة عن حماس مبالغ فيه لأفكار ربما صلحت لوقت مضى ، ولاتصلح لوقتنا هذا .

وكنا جماعة نجلس مع أحمد ، وكل شيء هادىء حولنا وبدأنا نداعبه فى حث الحديث . وإذا به يبادرنى سائلا عن كتاب لى ، وكان البعض قدقرأ أطرافاً منه ، ولم يكن قد قرأه فوعدته بنسخة .

قال أحمد . . . تكلمت أنا كثيراً وبودى أن أستمع إليك خاصة والحديث جار على صفحات الصحف عن تطوير التعليم ، وأقرأ عن لجان واجتماعات ، واهتمام على مستوى الدولة .

قلت . . . . يسعدنى أن أتحدث ، وسوف أقرأ لكم جزءاً يسيراً جداً مما كتبت . . . . :

* * *

نبادر فنسأل كيف يمكن للفلسفة أن تسهم إيجابياً فى تحسين التربية والتعليم فى مجتمع ؟ والفرض قائم بأن تحسين التربية وتطويرها أمر أساسى فى التقدم . الشكوى من انخفاض مستوى التعليم ، الآباء يقولون إن أبناءهم لاينالون قسطاً من التعليم كذلك الذى نالوه أيام كانوا تلاميذ فى المدارس . الإجابة عن ذلك السؤال يتطلب العديد من المقدمات .

أولا — ما يحتاجه تطوير التعليم

— دراية كافية بتنظيم التعليم الحالى وسلمه ، ومايدور داخل المؤسسات التعليميـــة .

— دراية كافية بالظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التى تعمل المدارس فى إطارها وتحت تأثيرها .

— ماهية القوى التى تستطيع — فى حالة وجود اقتراحات للاصلاح — أن تنفذ مايقترح فى المدارس .

— فهم وضع لدى المسئولين والعاملين المختصين عن ماهية التربية . ووظيفتها فى كل مرحلة تعليمية وفى كل بعد من أبعادها .

هذه المتطلبات الأربعة — بغض النظر عن ترتيبها من حيث الأهمية — تلوح أنها بعيدة عن ميدان الفلسفة إذا استثنينا المطلب الرابع خاص بماهية التربية ووظيفتها . وليس من المهم أن نظل نستمع إلى تراهات الذين يدعون أن الفلسفة لا صلة لها بالتربية ، بمعنى ما دخل الفلسفة بالتربية وهى تهيم فى أبراج عاجية ، وهى بعيدة عن الواقع . فالمعروف أن للعلوم الطبيعية منافع عملية ، فالعلم يعطينا القوة على التنبؤ بما سيحدث فى المجال الطبيعى ، بل نستطيع أن نتحكم فى أمور طبيعية كثيرة . ولكن ما نفع الفلسفة ؟ .

تمدنا الفلسفة بالقوة لكى نستخدم بحكمة وحذر قوى التنبؤ والتحكم ، فقد تستخدم الطاقة النووية من أجل السلام ، وقد تستخدم للتدمير والهلاك ، الفلسفة إذن تنير الطريق أمامنا للعمل المفيد الخير ، وكيف نستخدم قوانا لنحقق أغراضنا .

ثانياً — ماهية المشكلات الاساسية لفلسفة التربية

والسؤال هنا عن أهم المشكلات الأساسية التى تعالجها فلسفة التربية ، والتى يمكن لهذه الفلسفة أن تلقى أضواء عليها ، وبذلك تعطينا إمكانات أعرض لتقييم مختلف جوانب المشكلة بحكمة ورزانة ، بعيداً عن الزق والانفعال . وكيف أن هذا التقييم يفسح المجال للتطبيقات التربوية المحدية ، أو لاقتراح وسائل الإصلاح فى النظام التعليمى .

من الأسئلة الفلسفية سؤال عن مصير الفرد وعن أهمية حياته على الأرض ؟ هل السنوات التى يحياها — وهى قليلة نسبياً — كافية ليأخذ من الحياة ما يجب أن يأخذه ويرتوى ؟ أم هذه السنوات جزء من حياة الفرد

الشاملة الكاملة ، وأن هذه الفترة القصيرة – نسبياً – فى حياته الكبرى ومع قصرها تحدد طبيعة فترة حياته الباقية ؟

هذا موضوع فلسفى ، ولكن إذا اعتقدت أن حياتك الدنيوية ستؤثر بما تعمله فيها على بقية حياتك الأخرى ، فماذا تفعل ؟ كيف تسلك فى حياتك الدنيوية ؟ ماذا يجب أن تعرف لكى تسعد فى حياتك بعد الحياة الدنيوية ؟ لاشك أن ما (يتعلمه) الفرد هنا فى دنياه يجب أن يأخذ مجرى معيناً يختلف تماماً عن الموقف عندما لا تكون هناك مثل تلك الفلسفة .

ولكن موضوع ما بعد الموت ، والحياة الأخرى ، والبعث ، أصبحت اليوم مرتبطة بالإيمان أكثر من ارتباطها بالمعرفة . والجدل حولها غزير كثير ؛ والبعض يلتزم بالكتب السماوية والبعض يخلق الحجج المنطقية ، وقد يلجأ البعض إلى العلم فيفسرون بعض نتائجه تفسيراً يلائم موقفهم حتى يدعم . والجدل كما قلت كثير ، وليس هنا مجاله .

ويهمنا – بدلا من الخوض فى تلك المعارك – أن نحدد أنفسنا بما يتصل بحياة الإنسان من المهد إلى اللحد ، من الميلاد إلى الموت . وبالقوتين اللتين منحناهما وهما الملاحظة والتفكير نستطيع أن نتخذ بعض المواقف الباحثة .

أول هذه المواقف التى تبحث فى حياتنا يدور حول معنى « التربية » وما علاقة التربية بالتدريس والبث العقائدى والتدريب . موقف باحث آخر يدور حول حاجة الإنسان لتربية اصطناعية تضاف إلى التربية التى يشتقها من خبرته فى الحياة . موقف باحث ثالث متعلق بطبيعة هذا الكائن المسمى « الإنسان » وهو الكائن الذى يربى . فكما أننا نتحدث عن أبعاد ثلاثة للشىء هى الطول والعرض والعمق فكذلك علينا أن نسأل ما هى أبعاد طبيعة الإنسان التى سوف تؤسس تربيته على بعد واحد أو أكثر منها . ولنبحث فى هذه المواقف الباحثة الثلاثة .

(١) التربية والتدريس والبث

أن تربى educate فى أصلها اللاتينى تعنى أن تسحب من الداخل ، وما تسحبه من الداخل وتنميه لا يمكن أن يكون إلا قدرات لدى الإنسان ، وهذه القدرات تظل كامنة قائمة أو فى طورها الجنينى إلى أن يحركها شىء فيوقظها ويغذيها ويتعهدها بالمران . بعض هذه القدرات والإمكانات الكامنة عند الإنسان خير وبعضها شرير . هذا الخير والشر بالنسبة للظروف البيئية التى يوجد فيها الإنسان فى زمان ومكان ما ، الأمر نسبى . ليس غريباً أن نسمع عن مدرسة تربى النشالين ، أو بيئة تربى المنحرفين وحملة الرذائل . ولكن عندما نتكلم عن تربية نعنى تنمية القدرات فى اتجاه الخير ، تنمية الصالح منها ، وقد يكون هذا عملاً أصعب .

وتتم التربية من خلال عمليات ثلاث هى عملية التدريس وعملية التدريب وعملية البث ، وفى العمليتين الأخيرتين يمضى المتعلم جانباً كبيراً من الوقت فى تقليد ما لاحظه مضافاً إلى الاتصال اللغوى بين المعلم والمتعلمين . التدريس يعنى عملية تقديم المعرفة إلى العقل بحيث تأخذ معرفة الحقائق والعلاقات والقوانين والمبادىء . . مكاناً فيه . التدريب عملية إعطاء فرد المهارة لعمل بعض المنجزات العقلية أو الجسمية ، وفى التدريب لا يتطلب الأمر دائماً فهم الأسس والمبادىء التى يرتكز أو يعتمد عليها المنجز .

إلى جانب المعلومات والمهارات ، يتطلب الأمر أن نزرع فى الشخص بعض المعتقدات أو العقائد المثبتة dogmas يترجمها البعض بالتسليمات المتشبثة. تختلف هذه عن تدريس المعرفة ، وهى تعمل على تشكيل السلوك والمزاج والإحساس عند فرد ما بحيث تعده للتوافق الكامل مع غيره من أصحاب تلك العقيدة . زرع الـdogmas يختلف عن التدريس ، فإن بث مذهب دينى أو سياسى أو اجتماعى يختلف عن التدريس عن هذا المذهب أو ذاك . ويعتمد

البث العقائدى على الإيحاء وهو يشتمل على صب معتقدات فى عقل السامع بطريقة أو أخرى . ولكن يشترط استبعاد إصدار الأحكام الناقدة عند السامع وبذلك يضمن الموحى التقبل الآلى من جانب الموحى إليه . فى حين أنه فى التدريس ينتظر من المعلم أن يعطى الأدلة المختلفة مبيناً ما فيها من قوة وضعف متيحاً لتلاميذه فرص الأسئلة والنقد والتعديل .

البث العقائدى نفسياً يؤدى إلى « تحويل الفرد إلى » ، وليس « تزويد الفرد ببعض المعلومات عن » ، تحويل الفرد إلى الإطار الاجتماعى المفروض أن يتحول إليه . ويتألف هذا الإطار الإجتماعى من المعتقدات والعادات والولاءات والارتباطات الخاصة بالبيئة التى يعيش فيها أو سيعيش فيها .

(ب) حاجة الإنسان إلى التربية

لماذا يحتاج الإنسان إلى التربية ؟ فى رأى أن الإنسان أقل الحيوانات تزوداً بالآليات الغريزية التى بها يستطيع التعامل مع البيئة . كثير من الحيوانات لها فترة طفولة قصيرة جداً ، وبنموها تكتسب هذه الآليات ، وهى لا تتعلم كيف تتعامل مع بيئتها ، ولكن الآليات الغريزية ذاتها هى التى توجه سلوكها فى البيئة . على العكس نجد الإنسان ، له طفولة طويلة المدى ، يعتمد فيها على غيره . ولكن لدى الإنسان الطفل القدرات التى تمكنه ـ عند ما ينمو ـ من الاعتماد على نفسه فى معيشته فى البيئة أكثر من أى حيوان آخر . وهو يستطيع ذلك عن طريق تعلمه وخضوعه لتربيته ، لا لمجرد نضج غرائزه . الإنسان أكثر الحيوانات مرونة وقابلية للتعلم ، وهو أكثرها احتياجاً للتعليم .

جانب من هذا التعليم يتم بطريقة آلية ، بمعنى أن الفرد الإنسان لا يخضع فى هذا الجانب إلى أساليب وأنظمة قصد بها أن تعلمه . ففى مسار حياتنا نتعرض لخبرات لم نقصد التعرض لها ومن هذه الخبرات نتعلم ، لم نقصد أن نتعلم ، ولم يسع إنسان لتعليمنا ، ولكن مجرد حياتنا فى مجتمع ما يعرضنا لخبرات عديدة ، حتى ولو عزل الفرد نفسه ، أو وجد نفسه معزولا ، فإن

احتكاكه بعناصر الطبيعة وتفاعله معها يكسبه خبرات ، وهو هنا يتعلم ، ويكتسب معلومات أو مهارات ، بل ينمى قدراته التى تتطلبها الظروف التى وجد الإنسان نفسه فيها .

الإنسان فى بيئته - إذن - يتعرض لخبرات ويتعلم ، ولكنه لا يكتفى بهذا القدر من التعلم ، فهو يطلب المزيد ليكون تفاعله مع الأشياء والأحياء أكثر إثماراً . ثم قد يجد الإنسان نفسه مضطراً إلى أن يقوم بدور المعلم ؛ فالأب فى مجتمعات ما يعلم أطفاله ، بل إن الجيل يعلم الجيل ، هذه العملية هى « محاولة من جانب الراشدين فى المجتمع البشرى لتشكيل نمو الأجيال الصاعدة بما يتفق مع مثلها فى الحياة » .

فى المجتمعات البدائية أو التى لم تؤثر فيها التقدمات المدنية حتى بنصيب بسيط ، نجد تهييطاً للفردية ، بل لا يسمح للفردية بالازدهار . (التربية) فى هذه المجتمعات تقوم أساساً على عدم الاعتراف بالفردية . . على العكس فى المجتمعات المتقدمة حيث تعطى للفردية أهمية ، وينظر للفرد النامى على أنه كائن حى حر وليس مسماراً فى آلة ضخمة . مثل هذه المجتمعات ترى أن أفضل أشكال الحياة الجماعية تتدعم بتربية تهتم بالمناشط الاجتماعية كوسيلة أساسية لنمو أرقى مستويات الحياة الفردية أكثر من كونها وسيلة لإخضاع النمو الفردى لها .

وقد ألمحت إلى أن الإنسان يعلم نفسه ، كما يعلم غيره . وفى تعليم الإنسان نفسه عمل قد لا تستطيعه الجماعات المعنية ، أو أن هذه الهيئات والجماعات لا ترى ضرورة لما يعلمه الفرد لنفسه !! . فالإنسان يلاحظ نفسه ، أمر لا يتيسر للحيوانات. وهو من أكثر الحيوانات تطلعاً إلى المرآة ، المرآة المحسوسة أو العقلية وهى التأمل . وكثيراً ما يجد الفرد فى المرآة (بنوعيها) ما لا يعجبه . الإنسان إذن حيوان ناقد ، قادر على أن ينقد نفسه ، وبذلك يستطيع أن

يحسن ويعدل نفسه أيضاً . وكما يقول نيتشه فالإنسان هو الحيوان الذى يخجل من نفسه دواماً . وهو كائن مثالى ، مريض صعب شفاؤه من المثالية ، غير راض عما حوله ، وعما فى نفسه ، وهو يحاول باستمرار التعديل والتحسين .

لماذا نربى ؟ الإجابة واضحة فيما يجده الإنسان عندما ينظر إلى مرآة نفسه ، وينظر إلى غيره . . . . يجد الجهل والرياء والنفاق والبله وأعنف المرض والغفلة والظلم والأنانية والبؤس والجبن والنذالة والكذب والغش ... وغيرها . طفح من هذه السوءات يهدد سعادة الفرد والجماعة . لابد إذن من تقليل كميات هذه السوءات إلى الحد الأدنى ، أو التخلص من بعضها أو غالبيتها ، فهى العوائق أمام علاقات بشرية صحية سليمة سعيدة ، لتتحقق هذه العلاقات المقبولات لا بد من قص أجنحة هذه السوءات .

(ج) أبعاد طبيعة الإنسان

كثيرة تلك المحاولات التى حاولت تحديد طبيعة الانسان ، ماهية الإنسان. فى رأى أن الانسان يتميز عن الحيوان بقدرته على ملاحظة ذاته ونقدها . . . كما قال نيتشه إن الانسان هو حيوان صاحب الوجنات الحمراء ، فهى تتورد عندما يخجل . وقد وُصف الإنسان — فى رأى — بأنه الكائن صاحب العقل ولذلك سمى بالإنسان العاقل homo sapiens وإذا كانت ماهية الانسان العقل والتفكير فإن إحساساته وانفعالاته حوادث أو أعراض لعقله أو تفكيره . وفى رأى ثالث أن ماهية الإنسان فى إرادته ، فى عزمه ورغباته وأغراضه واشتياقاته ، وأن قواه المعرفية هى — كما يقول شوبنهور — « ضوء أشعلته إرادته لينير له الطريق » . وفى رأى رابع أن الكائن البشرى لايجب أن ينظر إليه على أنه فرد ، ولكنه عضو فى مجتمع . . . هو خلية فى جسم عضوى كبير ، وتشتق أهمية هذا الكائن (الواحد) من شىء خارج عنه .

ورأى ، قد يأخذ به الكثيرون ، أن القوى المعرفية للانسان ، وقدراته

الانفعالية ، دوافعه ، نزعاته ، قوة إرادته ، قوته الجسمية ، حاجته إلى عضوية الجماعة ، واستطاعته هذه العضوية . . ، كل هذه جوانب من طبيعة الإنسان ، أبعاد لهذه الطبيعة .

ماهية الإنسان ليست بسيطة ، تقال فى كلمة واحدة أو عبارة قصيرة ، ولكنها تشتمل على تلك القوى فى تلاحمها وتشابكها وتعقدها . هذه القوى توجد فى كميات ودرجات مختلفة عند كل فرد ، وقد تبزغ واحدة منها لتسيد ، فقد تحتل منطقة النفوذ القوى المعرفية ، وتخضع لها بقية القوى . وأقول تخضع بمعنى أنها موجودة وتعمل وتؤثر فى تشكيل حياة الفرد .

مهمة التربية ألاتتجاهل أياً من هذه القوى ، بل تنميتها جميعاً بمقادير متناسبة ، وتعمل على التكامل بينها فتنسج منها وحدة عضوية . دور شاق عسير على التربية أن تقوم به طالما اعترفنا بأن الانسان يجب أن يربى . وإذا اتفقنا على أبعاد طبيعة الإنسان فجدير بنا أن نقول شيئاً عن أبعاد تربيته ، وهى متوافقة ومتمشية مع أبعاد طبيعته .

ثالثاً — أبعاد تربية الانسان

(ا) التربية العقلية

أول مايخطر إلى البال عند سماع كلمة تربية أو مدرسة أو معلم هومايرتبط بالجانب العقلى فى العملية التربوية : الأب يسأل ابنه عما تعلم اليوم فى المدرسة ، لايقصد إلا معرفة هل تعلم كيف يكتب ، كيف يحسب ؟ هذا البعدمن أبعاد التربية مرتبط بالمعرفة والتفكير . وقد ساد فى السنوات الأخيرة رأى قال إنه ليس المهم الكم الذى يحصل عليه الفرد المتعلم من المعرفة ، ولكن المهم أن يتعلم كيف يفكر ، وأن ينمى القدرة على الكشف العقلى المستقل . وفى رأى أن هذا شطط ومبالغة يمكن الصفح عنهما إذا كان ذلك الموقف هجوماً على آخر يرى أن التربية العقلية تنحصر فى الكم المعرفى الذى يكتسبه الفرد المتعلم .

وقد يعن لى القول بأنه فى أى عمر وفى أى مكان لابد للفرد من حد أدنى من المعرفة ، ويفضل أن يزيد عن هذا الحد الأدنى. إن فقدان الفرد لهذا القدر من المعرفة يجعله كالهائم فى الصحراء دون بوصلة تحدد له أى اتجاه يسلك . دون خريطة تنبئه أين هو . لايدرى شيئاً عن الإمكانات غير المرئية له بعينه المجردة ، لايعلم إلا مايراه قريباً منه ، وربما كان فى أفقر بقعة . من المهم إذن أن يلم الفرد بقسط وافر من الكم المعرفى ، أومايمكن أن نطلق عليه خريطة المعرفة . هى معرفة متنوعة غنية فى اتساع أفقها ، وليس فى عمقها . أقصد الاتساع العريض لاالتعمق الضيق . شىء عن كل شىء .

بالإضافة إلى شىء عن كل شىء ، فعلى الفرد أن يعرف كل مايستطيع عن شىء ، التعمق فى معرفة شىء ما مهم كأهمية الاتساع العريض ، بل هذه هى سمة العصر . التخصص فى واحد من جوانب المعرفة ، هذه الجوانب تعد بالآلاف . مضى الوقت الذى يعرف فيه فرد ما ، مهما كان عبقرياً ، كل شىء ، هذا دليل قلة معرفته تقريباً بكل شىء .

لكن ليست التربية العقلية قاصرة على هذين النوعين من المعرفة ، إذ لابد من تنمية القوى العقلية لدى الفرد ، كقوة الملاحظة الموضوعيه الدقيقة ، وفى تنظيم مايلاحظه الفرد ، فى فهم مايلاحظه واستخراج حقائق ثم تجميعها وتبويبها والوصول إلى أحكام سليمة . وحرى بالفرد أن يعرف كيف يقرأ بذكاء ، كيف تكون قراءته ناقدة ، كيف يقيم مايقرأ ويزن الأدلة فلايخدع ولايضلل ، جدير بالفرد فى تربيته العقلية أن يكون قادراً على اكتشاف نقاط فيما يقرأ تحتاج إلى تفسير ، وهو هنا يسأل أسئلة ربما لم تسأل من قبل . وهنا يضاء له الضوء الأخضر .

إكتساب الفرد هذه « المهارات » العقلية يختلف عما يحدث عندما يكتسب بعض المعلومات التى ترد إليه من الغير أو يتقبلها كما هى من الكتب أو المطبوعات

عامة . وتنمى هذه القوى العقلية بالتدريب ، وهذا التدريب يتم فى إطار البحث عن المعرفة . لاأقصد هنا من قريب أو بعيد أى تلميح أو تصريح بنظرية الملكات المرفوضة منذ عدة أجيال . عود إلى تدريب هذه القوى العقلية وحيث يطبق « التعليم بالعمل » عبارة التعليم بالعمل تفسر خطأ على أنها تعنى أن التعليم يتم بأن يكتشف الفرد بنفسه الحقائق . وهذا عبث ، فمن السفه أن يمضى الفرد ساعات وأياماً وشهوراً ليكتشف حقيقة ما يمكنه أن يعرفها فى دقيقة واحدة . وأمضى السابقون وقتاً طويلا حتى اكتشفوها ، فما المانع أن يعرف الطفل أن الدجاجة ترقد على بيضها ثلاثة أسابيع مثلا ، كحقيقة ، بدلا من مراقبة الدجاجة ترقد على بيضها ثلاثة أسابيع . ثم ماذا يفعل الطفل ليكتشف كروية الأرض ؟ هل يدور حولها أو يركب سفينة فضاء ليرى بعينيه أن الأرض كروية ؟

أن تتعلم من الغير نعمة كبرى ، وإلا فإن على كل جيل أن يبدأ من جديد ، فتجرى البشرية وهى فى مكانها . . . محلك سر . . . إذا كان على كل فرد أن يكتشف بنفسه حتى يصدق . . . أو حتى يتعلم فسوف يكون موقفه كموقف ذلك العنيد فى غباء الذى يستطيع أن يشترى رغيف الخبز بقرش ، ولكن إصراره الأحمق يدفعه إلى أن يزرع الأرض ثم يحصد ويطحن ويخبز لنفسه رغيفاً .

أين ؟ متى ؟ لماذا ؟ كيف ؟ . . . وغيرها تفتح لك طرق المعرفة ، هذه الأسئلة وغيرها تشكل مثالا لنوع الخدمة العملية التى يستطيع التفكير الفلسفى أن يقدمها حتى يزداد الضوء الأخضر لمعاناً .

وكما وقفنا هذا الموقف من القول التربوى الشائع « التعليم بالعمل » فبالمثل يمكن أن نحلل وندرس ونقيم أقوالا شائعة ، نأخذها مسلمات ، أو نتشدق بها مستعرضين عضلاتنا العلمية . وقد تكون ضعيفة . . . خذ مثلا « انسجام الفرد مع بيئته » ، « الديمقراطيه فى التربية » ، « التربية من

أجل التكيف ، وغيرها مما هى فى حاجة إلى الكثير من إعادة النظر فيها وتفسيرها إجرائياً .

(ب) التربية الجسمية

بغض النظر عن علاقة الجسم بالعقل ، فالذى لا شك فيه أن للفرد جسماً وأن هذا الجسم كعقله قابل للتربية . جسم الفرد البشرى فى تشريحه وعضلاته أثر على وجه الأرض أكثر من جسم أى حيوان آخر . أن تربى الجسم كأن تكون صاحب حصان تدخل به سباقاً مثيراً ، أنت لك العقل والتفكير فى إعداد و (تربية) الحصان لهذا السباق . فى تربية الجسم يكون الحديث عن عادات صحية نافعة من شأنها أن تنشىء الجسم صحياً ، وتجعله لائقاً للعمل ، بل تعطيه القدرة على المرونة والتشكل لمجابهة متطلبات الحياة المتغيرة . ولا أقصد هنا تنمية عضلات وقدرات جسمية كالتى عهدناها فى طرزان مثلا أو أحد (الفتوات) القادر على إظلام حى فى دقائق . أقول ليس هذا هو المقصود بالتربية الجسمية للإنسان المتمدين . التأكيد على الرياضة البدنية يهدف إلى تنمية القوى الجسمية فى الطفولة بحيث تكون جاهزة للعمل وقتما يطلب منها ذلك . إلى جانب لاسترواح والترفيه عند الكبار فى ممارستهم للنشاط الرياضى . فى الرياضة إبقاء للجسم على شكل مقبول فيه جمال وصحة لا لأغراض الضرب والتحطيم .

(جـ) التربية المهنية

كلمة جديرة بالتسجيل عن التربية ، المهنية ، وليس فى طبيعة الإنسان ما نقوم على تربيته مهنياً ، ولكنها تنمية — على درجة عالية من الكفاءة — لقدرات الفرد على العمل فى المهنة التى يعد لها . هذه القدرات قد تكون جسمية إذا رام الفرد العمل فى مجال رياضى مثلا يتطلب كفاءة جسمية معينة . وعلى اختلاف المهن وتنوعها الغزير يتوقف نوع التربية الصالحة لكل منها .

(د) تربية المهارة الاجتماعية

هناك تربية لازمة للفرد لكونه كائناً اجتماعياً ، أى لازمة له ليتعامل مع غيره من بنى البشر . ولا أدرى كيف نسمى هذه التربية ، هل هى تربية التعامل ؟ أم على وجه أشمل هى تنمية المهارة الاجتماعية ؟ هى تنمية قدرة يتسلح بها دائماً السياسيون ، ولكنها مفيدة لغيرهم . هى قدرة التعامل الناجح مع الغير كما هم ، تتقبل الواحد كما هو بصالحه وطالحه ، بخيره وشره ، وتتعامل معه وأنت مبتسم دائماً ، ولا تسعى مطلقاً لمناصبته العداء . وقد تكرهه فى أعماقك ، لكنك تتعاون معه والابتسامة الحلوة دائماً تكسو وجهك . . . المهم أنك تتقبله كما هو دون محاولة ملحة من ناحيتك لتغييره . هذه مهارة اجتماعية . . . وأى مهارة !! .

لكن مواقف الحياة لايمكن أن تنفع معها كلها هذه المهارة الاجتماعية ، فقد تضطر إلى أن تعارض أحياناً ، وتقف موقفاً ضد واحد من الناس ، وقد تنافس الغير أو تدخل فى صراع .

(هـ) تربية الإرادة

تربية الإرادة تعنى تنمية القدرة على عمل الأشياء التى يستطيع الواحد عملها ويرغب فى عملها . إنها التربية التى تجعل الفرد قادراً على التغلب على التراخى والكسل والتسويف . هى تربية تجعل الفرد مثابراً عاملا لتحقيق هدفه ، شجاعاً فى المحن ، ومستعداً لتقبل الآلام . بالاختصار هى تربية تترجم الأحلام إلى أعمال . وكم وضعنا آمالنا فى أفراد ولكنهم فشلوا فى الوصول إلى المستوى الذى قدرناه لهم ، قصرت عزيمتهم عن بلوغ مرادهم .

(و) التربية الجمالية

تتضمن هذه التربية فى معناها الواسع تنمية قدرة الفرد على التمييز الدقيق

فيما تتأثر به حواسه . . . الألوان ، الأشكال ، الروائح ، المذاق ، والمسموعات. يمكن بهذه التربية فصل عوامل الاختلاف واكتشاف عوامل الارتباط بين ما تدركه الحواس ، حساسية هذه الارتباطات هى التذوق أو الذوق الفنى .

تضم التربية الجمالية بمعناها الواسع أيضاً تنمية القدرات الفنية الكامنة لدى الفرد . التعبير بالفن له ميادينه كما للتعبير باللغة كتابة أو شفاها ، وإن كان التعبير بالفن فى رأى البعض أكثر إثارة ومتعة ، ولذلك فهو أكثر صعوبة . الصعوبة مع المتعة صفتان للتعبير الفنى ، وقد لا نتعلم الفن ثم نعبر فنياً بروائع ، لكن قلة نادرة هى القادرة على ذلك . الصعوبة والمتعة لما فى الفن من ابتكار وإبداع وأصالة .

لا يوجد الفن فقط فى معارض الرسم والنحت ، والتصوير ، وقاعات الموسيقى ، والاستوديوهات . . . ولكن الفن والخبرة الفنية بين ظهرانينا فى كل مكان وكل لحظة . والفن قرين الإنسان عبر العصور وحيثما عاش ، بل لقد صحبه إلى مقبرته . حتى (القلة) القناوى التى نشرب منها تزينت ، حتى (الشبشب) و (القبقاب) تفننا فى زخرفتهما ، حتى النقرشة على كعك العيد . . . أى شىء له نفع وله وظيفة ولا يمكن الاستغناء عنه دخله الفن ليزينه ويجمله عند الفقير وعند الغنى ، عند الصغير ، وعند الكبير . . . الفن فى حياة كل فرد .

(ز) التربية الخلقية والدينية

ليس تقليلا من أهمية التربية الدينية والخلقية مجيئهما المتأخر هذا بعد الفن والتربية المهنية والجسمية والعقلية وغيرها ، هذا أمر غير مقصود . وفى رأيى أن الدين أساس لا يمكن الاستغناء عنه للخلق ، وثمة علاقة وطيدة تربط الأخلاق بالدين . ما الأخلاق وما الدين ؟ يقال إن الناس ثلاث

طبقات – وهذا رأى Plotinus : طبقة توصف بأنها حيوانات وسط آدميين : وطبقة توصف بأنها آدميون وسط حيوانات . وطبقة توصف بأنها ملائكة وسط آدميين . وقد نقسم الناس إلى أربع طبقات بدلا من ثلاث ، أحطها وأدناها فى الدرك الأسفل هم الشريرون وهم الذين يأتون الشر لا ليجنوا منفعة من ورائه ولكن من أجل اللذة التى يتمتعون بها وهم يمارسون الشر ، حتى لوكلفهم هذا ثمناً وتعباً ونصباً . الشر من أجل لذة الاستمتاع به . وقد يكون من هذه الطبقة جماعة السادين الذين يتلذذون من تعذيب الغير ، وجماعة المخربين . هل وقفت أمام موظف ، لك طلب عنده ويستطيع إنجازه فى خمس دقائق ولكنه يقول لك تعال غداً ، وفى الغد يطالبك بالمجىء فى غد الغد وهكذا يستعذب وقوفك ورجاءك ومشاويرك ! !

فوق هذه الطبقة نجد طبقة الأنانيين . والأنانى هو الشخص الذى يهتم فقط بمصلحته ويسعى إليها ولو على حساب الغير . . . هو فقط . لا شىء يهمه إلا أن ينفذ طلبه وليأت الطوفان على غيره . وهو لا يعمل عامداً على الإضرار بالغير أو نفعهم ، ولكنه على أتم الاستعداد للإضرار بالغير أو حتى نفعهم إذا حقق هذا خيراً له . . . الأنانى دائماً لا يهمه ما يحيق بالغير طالما أنه بمنأى عن الضرر .

فوق هذه الطبقة نجد طبقة الأخلاقيين حملة لواء الحق والفضيلة عامة . الأخلاقى رجل عدول ، يعطى ما لقيصر لقيصر ، يأخذ ماله ويعطى ما عليه ، نزيه ، أمين ، حريص هو ذلك الأخلاقى على تنفيذ تعهداته والتزاماته ؛ كما يحرص أن يسلك غيره نفس ما يسلك ، ولكنه لا يجد ضرورة فى أن يفعل أكثر مما يتطلبه الواجب والالتزامات . فلسفته أن يؤدى ما عليه ويأخذ ماله فى عدالة وبغير جور .

فوق هذه الطبقة نجد طبقة تتكون من جماعة من الذين أعطوا الغير

أكثر مما توقعوا ، أكثر مما تطلبته العدالة . رجل يجد سعادته القصوى فيما يعطيه من سعادة للغير ، هناؤه فى هناء الغير ، راحته فى راحة الغير . هو على طرف النقيض من الشرير . رجلنا هذا غيرى أى عكس أنانى ، يعطى من نفسه لغيره :

هذا البعد من التربية ، هل يمكن أن نسميه تربية القلب ؟ هل هذا ما نادى به الأنبياء والقديسون وأولياء الله الطاهرون ؟ هل هذا ما حاولوه وأرادوا للدنيا أن تنعم به ، صفاء ونقاء وطهارة القلب من الشوائب والحقد والشر والضغائن والحسد والنميمة والخداع . . . غسل القلب وتنقيته من الشر حتى يكون ناصعاً مملوءاً بالحب ؟ هل أرادوا أخوة الإنسان . . . أى إنسان فى أى مكان ؟ وزمان ؟

و الخلق القويم لا ينادى بالشر بدلا من الخير ، ولا بالكراهية بدلا من الحب ، ولا بالحرب بدلا من السلم ، ولا بالظلم بدلا من العدل . . . .

ثم أذكر أن الفرد يحس حسبما يفعل ، كلما فعلت الخير أحسست بالخير ، كلما أحببت وتعاطفت وعاونت زاد إحساسك بهذا الخير . . . جزاء الفضيلة فى إتيانها . . . وكلما أكثرت من الفضائل زاد إحساسك بما تضفيه من سعادة على الغير ، حتى ولو كانت وراء هذه الأفعال رغبات شخصية كتطلعك وأملك فى جنة الله .

* * *

وصار لنا شىء وشىء من الجدل العلمى فى محاولات لمزيد من التوضيح دون تجريح واشترك أحمد قليلا فى المناقشة ، وكنت أحس به فى لحظات متباعدة يتألم جسمياً ، لكنه كان يرفض أن نذهب حتى جاءته عائلته وأترك أحمد لهم .

فيض من خواطر

للمرة الأولى أرى أحد يضحك بكل جسمه حسبما تسمح عظامه المكسرة ، وسألت عن السبب فإذا بها هذه الرسوم (الكاريكاتورية) فى الصحف اليومية والتعليقات الساخرة من الدخول عند بعض الأفراد بعد أن حدث فى مصر ما أحدثه سليم الأول منذ أكثر من أربعة قرون ونصف قرن . . أيضاً . فقد أصبح العامل الماهر نادر الوجود ، ودخل الحرف من يعلمون عنها القليل .

كيف يمكن معالجة هذه المعادلة الصعبة ؟

أى كيف يمكن أن نوفق بين كسب مادى كبير جداً ، ولكن أصحابه من الحرفيين لا يحملون مؤهلات ، وربما متوسطة فى أحسن الظروف ، وبين هذا الرونق الاجتماعى الذى يجعل الأب والأم والإبنة يرفضون خطيباً يكسب المئات من الجنيهات لكنه لا يحمل شهادات ؟ :

ثمة خطأ ما انحدر إلينا عبر عصور طويلة ، وتأصل فينا وصار يوجهنا ، حتى اندفعت ألوف يحملون مؤهلات عليا إلى دول أخرى يعملون فى أى شىء ولكنهم يكسبون الألوف ، وقد صرفت عليهم الدولة الألوف ، ولم يردوا لها جنيهاً واحداً . وهم ربما سعداء ، وربما إدارات القوى العاملة سعيدة أيضاً . . . . ثم تريد كل محافظة أن يكون بها جامعة !! .

* * *

التنافس الشريف خلق كريم ، أما التكالب الجشع فهو آفة اجتماعية : التنافس البناء سمة مطلوبة فى المجتمع وفيها عزة ، وهو محاولة يثبت بها الفرد بأمجاده وقدراته العلمية أنه قادر ، أما التكالب فهو عمل يزيف التنافس ، سلوك لونه ميكيافيللى . . . . وهنا تهتز الاتجاهات النبيلة ، وقد يدمر

المتكالب نفسه وغيره . وقد ينجح بعض المتكالبين ، كما ينجح بعض المزيفين .

ما يؤلم يا أخى أن يبلى ميدان التربية كغيره من الميادين بقلة من هؤلاء ، والمفروض أنهم قدوة حسنة تحتذى ، لكنها ذابت أو طارت . ربما لو أن هناك تعاوناً مثمراً لكان سبيل الإصلاح التربوى أكثر يسراً . التعاون موصل جيد للتقدم ، أما التكالب فهو موصل سئ ، بل هو لايوصل أبداً للتقدم . لأن التقدم يرتبط بخير الجميع ، أما التكالب فيرتبط بمصلحة فرد ما أو مجموعة قليلة جداً تمثلون هيئة المنتفعين . . . لذلك فنكاد لا نتحرك إلا بأبطأ من السلحفاة فى زمن الاندفاع الصاروخى . . . . سمها صرخة ألم إن شئت . إذ تربوياً هناك ضعف ، وحضارياً هناك شبه تجمد إلا فى بعض الأنشطة .

الطفل الغاضب يا أخى غضب طفلاً ويافعاً ورجلاً ، وقد أخذه الغضب فى قسوة ، إذ تطلع إلى المجتمع وقد خذله بمن فيه ولا أقول بما فيه . إذ ما حدث كان غير ما كان يجب أن يحدث ، ولا أريد أن أنبش الماضى ، فقد فعلت ، ولكن أتصور أموراً تجرى حتى اليوم تنبئ بجدارة أن أطفال مصر ليسوا سواسية فيما يقدم لهم من تربية وتعليم . إذ نال بعضهم — وهم قلة قليلة جداً — الكثير ، وحجب عن الغالبية العظمى ما يجب أن تناله

على الورق وأمام المحافل الدولية هناك تكافؤ للفرص وديموقراطية فى التعليم ، وربما الحادث غير ذلك . هذه الغالبية تهرع خارجة من المدارس بعد ثلاث أو أربع ساعات من (تعليم ! !) ، وهم يطيرون فرحاً وقد غطوا الطريق بأعدادهم الهائلة ، يضحكون اليوم لأنهم فلتوا من هذا السجن حتى ولوكان السجان فتاة لطيفة فى مقتبل العمر تفكر أولاً فى عريس وثامناً فى تدويس . . . وليس فى هذا القول تعميم فبعضهن مخلصات أمينات ، ولكنهن قلة ، وربما حق معهن .

الأمر الهام هنا أن كثرة فى المجتمع أصبحت لا تحترم المدرسة ولا من فيها ولا مافيها ، وقلة سعدت وتسعد بعقلها أو بالإمكانات المادية أو بهذا وذاك، وهذه تريد مجتمعاً منضبطاً ، ولكن ما تفعله الكثرة التى غضبت لأنها لم تنل تعليماً سلبياً انعكس على المجتمع وصارت تتحدى قوانينه ويهمها جداً أن تكسر هذه القواعد والقوانين . هنا غضبت القلة التى صارت فى حالة اغتراب .

لكى نضع بعض النقاط فوق بعض الحروف . قف فى محطة حافلة (أوتوبيس) وراقب ما يحدث عندما يأتى . . . واعجب لهذا الاندفاع التكالبى فى غير هوادة ولا رحمة برجل مسن ولا بامرأة تحمل فى داخلها مواطناً سوف يأتى ، وفى كل يد مواطناً أتى فعلاً . . . أنا . . . وأنا فقط . وتسود شريعة الغاب ، بل إن هذه السيارة الضخمة تنفذ هذه الشريعة فى تعاملها مع الشارع بما فيه من مشاة وسيارات صغيرة .

نعم ، التربية مسئولة ومسئولة .

ولكن نعود — يا أخى — ونسمع عن الاعتمادات المالية واقتصاد الحرب والانفجار السكانى . وكل هذا جميل ومعقول ومقبول . لكن هل نترك الأمور على ما هى عليه ؟ وقد خرج الأطفال من مدرستهم الابتدائية إلى عرض الطريق . . . .

يا أخى : عفوك فإن هذه الحبوب المهدئة وأحياناً المنومة قد تنسينى ما سبق ذكره ، ولا بد لى منها ، هكذا قال الأطباء ، وهم يدرون ماذا يقولون ، وعلى الطاعة ، فإذا صار تكرار فهو يعبر عن صدق إحساس داخلى عندى ، وأرجو ألا يضايقك . . . . ويمكنك — فى سرك — أن تقول « قديمة » أقصد تلك الحكاية !! .

أقول : يخرج الأطفال إلى عرض الشارع بعد أن رمتهم المدرسة إليه وسعدت بتخلصها منهم ، كما فرحوا هم أيضاً ، وقد ضج المدرســون

والمدرسات ، وكذلك ضج الأطفال الذين سرعان ما ينسون ما تعلموه إلا قلة وراءها من أوليـــاء أمور ناضجين يحاولون تثبيت أطراف مما قد تعلمه أطفالهم .

ولا تحاول أن تقنعنى أن تعليما يحدث فى مدارسنا الابتدائية الحكومية ، إلا فى القليل ، إذ قد انكمش وتقلص اليوم المدرسى ، والطفل فى زنقة ، مع خمسين آخرين ، وقلة من الذين يدرسون لهم سعداء بعملهم ، ناهيك عن المقاعد والسبورات ودورات المياه ... الخ .

عند ما وحدت مرحلة التعليم الأولى بدلا من ثنائية أوّلى وابتدائى ، كنا نرجو أن ترتفع المدارس الأولية إلى مستوى المدارس الابتدائية ، لكن الأمانى تحطمت وتحولت المدارس الابتدائية إلى مدارس أولية بما فيها من امكانات قليلة ، بل ازدادت قلة وضعفاً مادياً وبشرياً . وأقرأ عن محاولات جادة للإصلاح والتطوير . . . ونرجو لها كل التوفيق ، فهذه المرحلة ركيزة قوية لما بعدها من مراحل .

من مائة طفل دخلوا الصف الأول الابتدائى يتخرج من الصف السادس عدد ويتسرب عدد ويرسب عدد والأرقام التى تذكر تدور حول بعضها استفسارات وتساؤلات . وبعض من ينجحون يرتدون إلى الأمية وقد نسوا ما تعلموه . وهذا موقف مذهل محير مثير ومنذر بخطر كبير : وهذه قضية نتحدث فيها فى وقت آخر . لكن مايؤلم حقا مآل هؤلاء المتسربين والراسبين . إذ المفروض أن المدرسه الابتدائية — وهى مرحلة الإلزام — وربما التعليم الأساسى فيما بعد ، أن تحاول تهيئة أبنائها للمواطنة ، ولكن الأمر كما ترى . والمجتمع يتطلب من أفراده وعيا معينا بحقوقهم وواجباتهم ، وأن تكون لديهم اتجاهات معينة نحو أنفسهم ونحو غيرهم . ونحو تراب بلدهم . يريد المجتمع أفرادا قد تسلحوا بقيم أيمانية وجمالية تجعلهم يتحملون بقدرة مسئولياتهم ، حتى لا يكون هذا النشاز الحادث والذى يجعل أفرادا يتصرفون ما شاء لهم الهوى .

وتصيح مآذن المساجد وأجراس الكنائس ، والشوارع قذرة بما فيها وفى الألفاظ التى نسمعها من بعض روادها ، والتاجر يغش ، ومصلحتك فى إدارة ما لا بد أن تدفع حتى تمشى الأمور ، وحب الناس لبعضهم أصبح أسطورة . مأساة كبيرة تحتاج إلى سنوات حتى يعاد البناء الأخلاقى كما يجب أن يعاد . وحتى تعود أخلاقيات القرية المصرية كما عهدناها ، وتسرى فى القرى والمدن حتى تصبح الأسرة الكبيرة متماسكة فى حب وتعاون . ولنأمل فى مضاعفة حركات الإصلاح الحارية الآن ؛ بل وبجدية وجهد أكثر . وليحب الواحد منا لأخيه ما يحب لنفسه .

الحب كلمة جميلة أرادها الله لنا ، حب للخير وحب للجمال وحب للحق ، وفوق كل هذا حب صادق للقيم الأيمانية . ولن يقف الأمر عند حد أن نحب ، ولكن ليتباور الأمر إلى سلوك . وإذا كانت النيات صادقة فالعمل خير وجميل . هل يمكن أن يكون هذا الهدف الأساسى للتعليم الإلزامى أو سمه الأساسى ؟

هذا هدف نبيل تنسج حوله خيوط المناهج بما يدور داخل حجرات الدراسة وخارجها ، إن كان فى داخلها شىء هام ، وأشك أن فى خارجها شيئا ما . ربما تحول أمر الحب إلى هذه الأنغام الحالمة عن حب أول نظرة من فتى لفتاة ، واستغلت الكلمة النبيلة من شعراء وكتاب أغان لترضى مراهقين ومراهقات ، وربما سذج فى أواخر خريف العمر . وربما تدنست الكلمة عند البعض .

وصار حب المال إلى الحد الذى فاق التصور ، هو حب أطاح بالقيم ، وأصبح عاطفة سائدة تسيطر على تفكير واتجاهات صاحبه ، وبدلا من أن يكون السيد أصبح الأسير والخادم . يقول فلان إننى أحب الحق والعدل ، لكن إذا تعارضت عملية عادلة مع مصلحته هو ، تبخر هذا الحب . وليس هناك حب لأنك يا أخى أخذت رغيفى وعضضت كتفى .

إذا ارتبط الحب بمصلحة ، وإذا كانت ركائز الحب هى المصالح

الشخصية المادية فقل على الأرض السلام ... ودنيا عجب ، أيضا ... ودنيا آخر زمان .

يا أخى : زرع الاتجاهات الخلقية السليمة يجب أن يبدأ من بواكير الطفولة حيث يكون الطفل غضا متقبلا . قد أقبل بتحفظ شديد قول : إن التعلم فى الصغر كالنقش على الحجر . هذا إذا تم عن قناعة من الطفل وقدوة حسنة أمامه . وقلة من البيوت قادرة على هذا . وندرة من المدارس الابتدائية تفكر فى هذا .

قلت : والله يا أحمد إننى أسعد عندما أسمع كلمة طيبة من بائع فى محل قطاع عام وأروى القصة لزملائى وأصدقائى كأنما صار الأمر بعداً عن القاعدة وكان استثناء . ونشف ريق المسئولين ، ولكن كانت هناك أذن من طين وأذن من عجين . ربما عانى هذا المجتمع المصرى الكثير وخاض حروبا قتلت عشرات الألوف من أبنائه وأوصلت اقتصاده إلى حافة الهاوية وقتر فى الخدمات ليشترى الدبابات والطائرات ، وواحدة منها كافية لبناء عدد من المدارس والمستشفيات ، وكانت تضحيات بشرية ومادية فوق تحمل بلد ليس غنيا . ولكن هذا شرف وواجب ، وقد صار وقد حدث .

وربطنا الأحزمة على البطون ، وغيرنا أعطى القليل من العمل والكثير جدا من الشعارات والأقوال .

ومع ذلك ، ومع كل هذا فكان يجب أن تكون للتربية أدوار أشد وأحسن ، كان يجب عليها أن تتخطى كل هذا بتأكيد الصلابة الأخلاقية والعلمية حتى تعطى العالم مثالا رائعا للكيفية التى تستطيع بها المدرسة أن تقود المجتمع وتسانده وتقوى ما يحققه من انتصارات . كيف ؟ هذا حديث آخر

ما ضايقنى ويضايقنى يا صديقى العزيز هذا الكذب الذى استشرى فى كثير من المجالات . والكذب ملجأ سهل للخروج من مأزق . وقد بلغ حداً

فى انتشاره أن أصبح عند البعض القاعدة ، وأصبح الصدق استثناء ، وهو موجود عند الغنى والفقير ، والصغير والكبير ، وعند الجاهل والمتعلم ، وعند الغفير وصاحب المنصب الكبير . ولم يكن مجتمعنا هكذا ، بل كان الكاذب الأشر إنساناً منبوذاً .

ونعلم أن المجتمع الذى يجد فيه الكاذب مكاناً ، ويحترم فيه !! . . . هو مجتمع فى أعماقه يتحلل فى انهزام . وتظهر الشروخ فى البناء الاجتماعى والاقتصادى عند ما يكذب بعض رؤساء المصالح أو الإدارات ، ويستمرون فى الكذب ، والاحتمال كبير جداً جداً أن يستحى المرءوسون فلا يكذبونهم ، بل يقلدونهم على مستو أقل أو قل متواضع . وماذا يفعل واحد من الناس أوصله الكذب إلى ما يريد ؟ سوف يستمر فى هذه اللعبة . وهذا الأخ (المحترم) الذى كذب ويكذب ربما سيصدق ما يقوله هو . مثل جحا الذى قال للناس أن هناك وليمة ، واندفع القوم إلى حيث الوليمة ، ووقف هو يراقبهم ثم تبع وصدّق كذبته !! .

يجب أن تقف السلطة بكل عزم وحزم محاربة هؤلاء الذين يتقربون فى نعومة المداهنة ، محاربة هذا الذى ينافق وفى عينيه براءة الحمل الوديع ، ودخان الكذب يتصاعد من كل خلجة فى وجهه . وإذا كان الكذب يستر رذائل كثيرة ، فهو يؤدى إلى انهيارات خلقية كبيرة تطيح بمحاولات مجتمع نام يروم التقدم .

لو أن أسبوع النظافة نجح وحقق أهدافه لطالبنا بأسبوع « الصدق » ، ولنحاول أن نسبقه بأسبوع لصدق الفرد مع نفسه . وأشك فى تحقيق هذا ، أما إذا تحقق أسبوع « الصدق » وامتنع الناس عن الكذب فسوف تحدث أمور عجيبة ، فالمجتمع غير مستعد لكل هذا الصدق . وإذا قبلنا أن يكون هناك نوع من الكذب غير الضار مما يسمى بالكذب الأبيض ، فإن محاولة

الصدق قد تخرب بيوت البعض ، وتجنن البعض ؛ وتغيظ وتبكى البعض ، بل ربما تؤدى بأصحاب الكذب المرضى إلى الانتحار .

قال أحمد : التربية عندكم هى المسئولة ، وبقوة . لا أعنى تربية الأطفال فقط ولكن إعادة تربية بعض الكبار المسئولين عن تربية الصغار ، وكذلك بعض الذين يحتلون مناصب كبيرة وممن يتعاملون مع جماهير الشعب .

القضية قضية أخلاق . فإعادة التربية تعنى محاولة التخلص من اتجاهات وميول وعادات أصبحت غير صالحة لمجتمع يريد تخطى السنوات ، ويجاهد بكل العزم ليتقدم حتى ولو أدى الأمر لأن ينشب أفراده أظافرهم فى الأرض باحثين عن الماء . . . . ماء للبقاء الكريم . ولن يكون بقاء كريم دون أخلاق كريمة لا لقلة فقط ، ولكن للغالبية العظمى أو للجميع لو أمكن هذا . . . . . هل هو ممكن ؟ :

وضاع تفاؤل ربيع العمر .

دخل أحمد مسجد القلعة بعد أن صعد خطوات طويلة . وخرج منه سريعاً بعد أداء الصلاة ؛ ووقف يتطلع إلى القاهرة المحروسة ، وكان قد سمع بخبر الفرمان ، وماذا يعنى .

يقول أحمد وفى عينيه دموع تجمدت ، وفى قلبه لوعة لا يستطيع إلا أن تستمر . نظر إلى القاهرة ومبانيها ومآذنها وطرقاتها ، حتى وصلت عيناه إلى النيل يجرى ماؤه . قال . . . رب ، إنى قادر على التحصيل ، قادر على أن أنهل من العلم الكثير ، قادر مع غيرى على إنماء هذا المجتمع ، لا لهدف عسكرى يريده الوالى . . . لكن يارب . . . نسمع عن فرمان يصدر ، وجيش يتضاءل ، ثم مدارس عليا تقفل ، لأن الهرم وضع مقلوباً . لقد أرادوا فنيين كأطباء ومهندسين للجيش ، فسخروا كل الأجهزة التحتية

لتحقيق أهداف الأجهزة الفوقية . وعند ما انكشت الفوقية فى تحديد شديد ، كان على التحتية أن تقفل أبوابها .

وتحدث محنة فى دور العلم والتعليم . رب . . . . هل تصبح عقول البشر نهباً للتيارات السياسية وأهواء أسرة من خارج مصر . وعقول الناس تذروها رياح ، وليست لديهم قوة التصدى لها . وعشرات الألوف مثلى فقدوا حماسهم ، وكادوا يصبحون مثل عبيد الإغريق القدماء . لهذا أنا أغضب

لا يدرى أحمد ماذا كان يخبئه له هذا اليوم ، فقد هبت عاصفة خماسينية أفسدت الأماكن ، وذرات رفيعة من الرمال تدخل الأنوف والعيون وتؤلمها . وكان عليه أن يخرج ، ولبس جلبابه وطاقية من نفس لون الجلباب ، ثم لبس رداء طويلاً حتى يحل الوقار ؛ . . وركب الحمار . كان الحمار فى ذلك الوقت وسيلة مواصلات مريحة وعملية ، فراكبه لا يتحمل مشقة الصعود إلى القلعة ، ولا يجد مشقة فى إيجاد مكان يربط فيه الحمار ، ويذهب إلى شأنه . ثم نزل على حماره من القلعة وقد غطاه الغبار وكذلك الحمار من الرأس إلى القدمين .

وأحس أحمد شيئاً ما يضايقه فى صدره لايدرى سببه .وأسرع إلى زوجته شوق ، وكانت تتلهف إلى لقائه . وكان ثمة شىء ما حدث ، فقد وصلت حماته . وأحمد فى ضيق نفسى وكذلك شوق ، بينما الحماة فى بحبوحة نفسية ، واجتمعوا ودار حديث ، وصار دق على الباب إزداد عنفاً . وكان الطارق زميلاً لأحمد يكبره سناً . وأخذه خارج الدار وأنهى إليه أن الحمار يعود إلى السلطات ، إذليست هناك أية رغبة فى تعليمنا . قال أحمد . . . . سعيد هذا الحمار الذى كان عليه أن يطلع يوميا هذا المشوار ، وربما أخذه إكارى كان أكثر تعطفاً وكرماً منى ، وتحول من قطاع عام إلى قطاع خاص .

ودخل أحمد داره ، وكان على وجهه خطاب مفتوح قرأته زوجته دون

فهم . وضمها إلى صدره ولم ينبئها بسره . ربما عرفت فيما بعد ، ولكنه لم ينم تلك الليلة ولم يسترح لأن الغضب تملك عقله وإحساسه وأحشاءه وجسمه.

عندما غضب أحمد عبر العصور ، لم يغضب لنفسة فقط ولكن للكل . لقد أراد خيراً للمجتمع ولنفسه ، ولقد ظلمه هذا المجتمع ظلماً بيناً ، ولم يدر هذا المجتمع أن أحمد لبنة المجتمع ، سداته ولحمته . وأحس أنه هو القادر على أن يأخذ بيد المجتمع إلى التقدم . وتجيء الدموع إلى عينيه لأنه كان يريد ولم يستطع أن يحقق مايريد . وهذا موقف يعانى منه المجتمع ويعانى منه أحمد.

أحمد القرن الحالى الذى نعيشه يتساءل ، هل كان روسو مصيباً عندما قال مخاطباً مجتمعه . . . سيروا ضد ماأنتم عليه تصلوا إلى النجاح ، نحن لانعلم عن الطفولة شيئاً وكلما مضينا فى طريقنا ونحن على جهل بطبيعة الأطفال إزددنا تورطاً فى الأمر وبعداً عن الصواب . . . ربما كان روسو مبالغاً بعض الشيء ، فنحن لانستطيع أن نغير كل شيء ، وليس من المنطق ترك الماضى كلية.

لكن علينا أن نفكر بطريقة جديدة جريئة ، قد يراها البعض يوتوبيا وردية ، وأراها ركيزة رصينة لبناء صرح تربوى يقف أمام المتغيرات والتحديات المحلية والعالمية . هل نحن فى تربيتنا نسير على خط سليم ؟ أم ربما هناك خط آخر أكثر سلامة ؟ الأمر يتطلب خطوة جبارة تدعونا إلى إعادة النظر فى كل القوالب التى عهدناها وعشناها ونعيشها . وطالما أن هدفنا تقدم المجتمع وهادينا إيمان عميق صادق بالله ، فلنفكر بصراحة ناقدة وفى واقعية مجدية لصالح مجتمعنا .

منذ حوالى نصف قرن حاولنا أن نمحو الأمية ، ثم أن يصل الإستيعاب فى المدارس الإبتدائية أكمله ، ولم يحدث لاهذا ولاذاك . ربما كانت إجراءات روتينية إزاء محاولات جادة وصادقة من المسئولين ،ولكن ثمة شيئاً يبطىء أو يعرقل عجلة الاصلاح ولكن هناك دائماً مشجب الإمكانات المادية

وضعف المخصصات وقلة الإعتمادات . قد تكون هناك نظرة جديدة وجريئة ولاأقول معجزة فى عصر اللامعجزات ، ولكن هناك شيئاً . . .

ربما فسدت بعض المشروعات الجديدة فى مصرنا العزيزة لأن مجلس إدارة مايقدم فى نهاية العام تقريراً لم يصدر فعلا عن الواقع المؤلم الذى يسير فيه المشروع . ولكن تزييف الحقائق أمرسهل حتى يرضى الرؤساء على المرءوسين ويضيع الناس ويضيع المال ويضيع مقوم أساسى لنمو المجتمع ، فقد زيفت الأرقام والنتائج .

ونحن هنا نضحك على أنفسنا . . . وكفانا وكفانا . هؤلاء المزيفون يجب أن يعاقبوا . . . وبقسوة . علينا أن نعترف أننا بلد يحاول أن ينمو وأن يتقدم ، وأن نكون أكثر واقعية ، فالفارق الحضارى والتربوى بيننا وبين الدول المتقدمة لايتضاءل بل يتزايد . ربما قدآن الأوان لا لبكاء على ماض ذهب وولى ولكن بصراحة واقعية . الإعتراف بالسوء ليس عيباً ، ولكن العيب الاستشراء فيه بعد عدم الإعتراف به .

خريطة العملية التربوية فى بلدنا فيها مناطق داكنة وأخرى باهرة ، والعقول المفكرة موجودة ، وكثير من النيات صادقة . . . لكن ماذا يحدث ؟ هنا تنطلق عقلة اللسان والنطق مع تفتح القلب .

* * *

لست أدرى ، ولكن فى جلستى مع أحمد ، وقد ألمت به إحساسات كونتها هذه العقاقير المهدئة ، ومن خلال ماهو فيه يحاول أن يسترجع أسباب وركائز هذا النضب ... أسمعه يتساءل عن هذا الإندفاع قليل النجاح نحو الأمية ، وقد مضت عشرات السنوات ومازال الموقف سيئاً ، يتساءل هل هناك صيغ أخرى قد تكون أكثر نجاحاً . . .

دائماً كنا ننتظر أن يأتى إلينا الأميون والأميات . . . لماذا لانذهب نحن

إليهم ؟ وكل الوزارات المعنية تسهم بنصيب ، وخريجو الجامعة أيضاً يسهمون، وكل من يستطيع فليسهم .

تقوم القوات المسلحة بأجهزتها وإمكاناتها الهائلة فى مكافحة الأمية وتدريب المهنيين ولها إنجازات عليها أن تفخر بها ، ولنا أن نطلب منها نشر هذا تفصيلياً فقد يفيدنا وقد يدعو إلى تفكيرها فى مضاعفة هذا الجهد مرات ومرات وخاصة فى جانب التأهيل المهنى .

وقد تكون خطة قومية على مختلف المستويات والتخصصات والمؤسسات عامة وخاصة ، وقد يكون غزو للتعليم كما صار غزو للصحراء . . . والله مع المؤمنين الجادين .

* * *

وقد خرج أحمد طفلنا الذى أصبح يافعاً ومازال أيضاً غاضباً . وقدأوصلته قدماه إلى حافة الترعة التى تناثرت على جانبيها أشجار ضخمة تحكى قصة الزمن الحاضر والماضى وربما الماضى البعيد إلى حيث تمتد جذورها فى باطن الأرض .

وجلس أحمد وبدأت الجلسة تطول مع توارد الأفكار وقد هاله مارأى بما يسمى بدور العلم والتعليم ، وربما دار بذهنه ماحدث فى كتاب ألف ليلة وليلةمن تصورات وأفكار طورها هوفى تفكيره وكان ثاقباً إلى تخيل لمستقبل. وربما جاءته سنة من نوم مع النسمة العليلة فاستند بظهره إلى جذع شجرة وتمدد فى إغفاءة رأى فيها كما يرى النائم سحباً كثيرة متراكمة ثم تسرق الشمس هنيهات تقتحم فيها أشعتها الأرض ويفرح القوم الذين هم عليها ، ثم تتكالب السحب القاتمة وتقتل الأشعة فى غير هوادة . ثم تغيب الشمس .

ورأى أحمد أن هناك صراعاً بين مايسمى — بوقتنا الحالى — المعادلةالصعبة

بين القدرة المالية لمجتمع نام والضرورة الملحة لهذا المجتمع لتطوير تعليمه . معادلة صعبة بين الإمكانات المادية وتطوير التعليم حتى يأخذ هذا المجتمع النامى إلى مسار ينمو فيه ويخرج من هذه الدائرة التى تضعه فى مصاف الدول وهى النامية غير الدول التي أكملت نموها، هو صراع بين مجتمعات سابقة للتصنيع ومجتمعات صنعت فعلا ، وهذه أغنى من غيرها .

وتراءى لأحمد وهو يستجلى الموقف فى مصر ، وقد درسه سابقاً ،كيف نستطيع أن نتطور وبسرعة كبيرة ، بينما نحن صناعياً وزراعياً ومادياً مازلنا نحاول . نضحى بماذا ؟ بتطوير للتعليم بكل مايحتاجه من إمكانات مادية نضعها إذن فى أيدى رجال الصناعة والسياسة والإقتصاد ينهضوا بالبلد صناعياً وزراعياً وتجارياً . . . الخ حتى تأتى الأموال المتدفقة ؛ ونترك للتعليم كماهو حتى إذا أتى الوقت وأصبح لدينا الوفرة والكثرة إتجهنا للتعليم ؟

أم نبدأ بالتعليم فننفق عليه الكثير الغزير ، ونطوره ونحسنه ونبنى أجمل المدارس ونعد أحسن المدرسين؟ عائد هذا العمل مردوده بعد سنوات طوال وربما جاع الشعب واشتكى . ومازال أحمد فى حلمه متسائلا ـ ربما ندت عن نفسه زفرات كثيرة ويتساءل : ماالحل ؟

والحل المقترح لم يأت إليه عن طريق الحلم أو الرؤيا . فاستيقظ أحمد ، ربما ذبابة داعبت بشرته أوربما صوت عال طرق أذنيه . . . الأمر الهام أنه إستيقظ ، وتلفت حواليه فالمنظر كما هو لم يتغير .

هى إذن محاولة لإيجاد معادلة جديدة بين الاقتصاد والتربية ، هى معادلة تحاول أن تربط فى جدية بين حاجة النمو الاقتصادى إلى أعداد وفيرة من الأفراد المدربين تدريباً جيداً ، وبين التطور التعليمى من ناحية ، وبين المهارات والمعارف اللازمة لمجالات التنمية المختلفة وبين مستويات وأشكال التعليم من ناحية أخرى .

إذ يعتبر الجانب الإقتصادى للتربية فى عصرنا الراهن من الأمور الهامة ، فقد جاء الاهتمام به من أعتبار رأس المال البشرى السبيل الأمثل لتحقيق التنمية الشاملة وفيها الاقتصادية ورفع مستوى الكفاية الإنتاجية ، والدليل واضح لما هو حادث فى البلاد المتقدمة .

ثم يتساءل أحمد هل من الصواب معالجة الاقتصاد على أنه جزء منفصل عن ثقافة المجتمع ؟ هل من الصواب النظر إلى الثقافة دون أن تضم فى جوانبها مضامين اقتصادية ؟ هو يشك . إذ يعتبر التعليم عملية استهلاكية وإنتاجية فى آن واحد ، بل إن جانب الاستهلاك لايعتبر من قبيل الترف والكماليات ، بل هو يعتبر أساساً لزيادة الإنتاج ، حيث أن ما قد يبدو استهلاكاً هو فى حقيقة الأمر طاقة يستخدمها النظام التربوى لزيادة كفاية الأفراد . . . وهذا فى صالح المجتمع وتنميته الشاملة .

هل من حملة شاملة يكون فيها النهوض بالتعليم ومعظم مظاهر الأنشطة البشرية فى وقت واحد . هذا أمر يحتاج إلى كثير من إمعان فى التفكير وإعمال فيه ... هل يمكن أن تصبح بعض مدارس التعليم الفنى منتجة ، ولايحتاج التعليم فيها إلى ميزانية من الدولة ؟ ثم أين دور المصانع والشركات والمؤسسات ... ؟

* * *

وكان هم كبير وضع على صدر أحمد فآوى إلى مضجعه وزوجته شوق إلى جواره وقد غلبها النعاس فنامت . وأراد أحمد النوم ، وعز عليه . وكان يأخذ جانبه من السرير تقلباً ذهاباً وجيئا . وقد أحست شوق بقلقه وسهده ، وسألته فى نصف نعاس عما به . ولم يحر جواباً ، ربما أشفق عليها فأخذها إلى صدره واعتصرها حانيا وهو يعيدها إلى السبات العميق ، وود لو أمسك بها طويلا ...

وربما أحست شوق وهى فى طريقها إلى النوم العميق أن ثمة أشياء يموج

بها صدر أحمد وتريد أن تنبلج وأن تتدفق . وبقدر صمته كانت تحس أنها أشياء تعنيه وتهمه وتؤرقه لأن الرياح لم تأت بما تشتهى السفن . وحدث هذا فى ليال سابقة ؛ وكانت كلما سألته دعاها أن تستريح وتنام وأن الصباح رباح .

وما زال أحمد يحس هذا السهاد القوى ، بل يحس أن النوم قد أنهزم أمامه ، وأنه أصبح أسير السهر . ثم ترك السرير وقام إلى مكان آخر . جلس .... وربما جلس إلى ربه وتساءل أسئلة كثيرة ... فنحن خلقنا سواسية كأسنان المشط ، ومع ذلك يمنح البعض ويحرم البعض . تساءل وقد مر بخبرات كثيرة أمس وأول أمس ... ورأى أمورا تدور فى المجتمع ضايقته وأغضبته... الناس فرادى كل يبحث عن مصلحته وفائدته ؛ لاتربط بينهم محبة مشتركة.. إلا فى أحوال نادرة ؛ ربما فى مناسبة دينية ؛ لكنهم سرعان ما ينفضون . ربما جمعهم ظلم من الوالى العثمانى ، أو من ممثل تركى للسلطة ، ثم ينفضون . كان المفروض أن أوامر الدين تلعب دوراً هاماً ، وفى تنفيذها يكون سلوك مشترك فيه تعاون وتآزر وعدل وحق .... وكان المفروض أن يكون هناك تعليم يناله الجميع ويتعلمون ويكتسبون مهارات سلوكية وقيما .... ومن هذه المصادر لايكون هذا التنافس المذموم المؤكد للأثرة والأنانية .

وأتطلع إلى أولى الأمر منا ، رجالنا الكبار ولهم المقام الرفيع فى هذا المجتمع .... وأسألهم ماذا فعلتم للصغار ؟ تحت كل الظروف وفى ظل أى استعمار ماذا فعلتم للأطفال فى إعداد ليلعبوا أدوارهم ضد هذا الاستعمار ؟ وأنتم قادة لهذا المجتمع ، حتى مع وجود جنوده وأتباعه ، لماذا لم يكن لكم دور أساسى فى إعدادنا وتربيتنا لمقاومة الأجنبى الغاصب؟ .... لهذا أنا غاضب. أنا غاضب طفلا وغلاماً وشاباً متطلعاً إلى عزة وكرامة بلدى وأرضى وسمائى .

إن غيبة هذه القيادات ، وكان المفروض أن تكون حاسمة حازمة أدت

إلى مانحن فيه من تسيب ، وإلى عمليات التزييف ودفع الرشاوى لقضاء الحاجات والمصالح . والباب العالى ، والصدر الأعظم ، قابع سعيد فى الآستانة والوالى يبعث إليه مما توصل إليه الملتزمون . والفلاحون يدفعون خوفاً من البطش والضرب والسجن .

والأيام تمر والسنوات تمر ، ونصوم كل رمضان ، ونعمل الكعك فى العيد ، ونضحى فى العيد التالى . وكل شىء يسير تماماً فالمسحراتى وطبلته موجودان ، والجزار والخروف موجودان . . . . وأصناف الطعام بكنافاتها وقطايفها وثريدها وجوزها ولوزها وعنب الشام وبلح اليمن . . . . كلها موجودة ومأكولة . وتشبع البطون وينام الناس وتنام العقول وتنام وحمية الشعب ويصبح الأطفال عضبى . .

وبدأت تتهادى ساعات اليوم الجديد الصغيرة وتدق دقائقها ، والناس نيام والهدوء يسود ، والنوم عن عينى أحمد متمرد ، وهو يستعطفه ويرجوه ولكنه يتدلل فى تعزز . يقول أحمد :

أحسست أن فى صدرى ما يؤرقنى ، قمت إلى ربى وتوضأت وصليت . أحسست وأنا واقف بين يديه أننى كبير . . . كبير . . . وفى أمن . لماذا ؟ لا أدرى ، لماذا فى هذه الصلاة بالذات كنت منه قريباً ، وقريباً جداً جداً وكان ربى معى ويتملكنى . . . فى كل قطرة من دمى تجرى فى عروقى ، وأحسست كل الأمان وأنا أسبح فى فضاء السعادة والراحة . ربما ما كان بى من إيمان أعطانى هذا الأمان والسعادة الراحة . . . .

إن ما يحدث لى هو بإرادته ، وماسيحدث لى أيضاً هو بإرادته ، وقد نزل ما حدث لى برداً وسلاماً ، وبكل القناعة والرضى تقبلته . ولقد سألت خالقى وهو يحيينى ويميتنى : هل لى من عمر أستطيع أن أبوح به بمكنونات صدرى وأن أخرج مابه من تأوهات والآم أخفيها وأخفيها فى حياتى ،

عن أهلى ، وأصدقائى وزملائى ؟ وقد يخدعون بهذه البسمات والضحكات .... وربما يحسدوننى على شىء من المرح يغلف تصرفاتى ... ولكنهم لايدرون بهذا البركان الثائر فى أعماقى . مافوق السطح هادىء ناعم . دنيا الأرض وبين سكانها لابد أن يعيش الفرد وسط جماعة ، أما براكينه وزلازله الداخلية فلتبق حبيسة صدره وتحت قشرتة الدماغية .

ولا يستطيع الواحد العاقل أن يكون فضفاضاً فى قوله ، يغمر غيره بخلجات صدره حتى لايحملة أسرار قلبة . . . وفى (القلب) الكثير .

وتكبر ساعات اليوم الجديد ، فمن الواحدة صارت الرابعة ، وبدأ فجر يوم جديد ينبلج ، وخرجت إلى أجمل الحدائق قاطبة فى القبة الفداوية عبر الطريق حيث أعيش ، وقد بدأت الخيوط البيضاء تهزم جيوش الخيوط السوداء :

الحياة التى دبت فى جنين اليوم الجديد جعلته الآن يقف ويمشى الهوينا ، وتدب على الطرقات أقدام ، وينقل الهواء أصواتاً ، وأرانى أنصت فى لهفة ، وأحس أنهم ناموا وشبعوا نوماً — ربما — واستيقظوا والفرح والأمل معهم . أنا لم أنم . هذا حسن . لكن لماذا لا أشارك القوم هذا التفاؤل ؟ وتفاءلت وأحسست إرتياحاً وبهجة ، وبدت الدنيا جميلة ، وكرهت أن أنام ، وليذهب عنى الكرى .

وكان شذى الفجر عبقاً ، وقبلت قطرات الندى سطوح ما تكونت عليه من الأشياء وأحسست أن الدنيا بكر ونظيفة وطاهرة وأن رائحتها خير وعطرها روحى :

ودلفت إلى الحديقة فى إحساس أننى أسبح فوق الأرض ، فكل مابى صفاء ونقاء وحب . ما كان واجباً أن أغضب وأن أغضب الغير ... كل شىء إلى زوال : . ويبقى وجه الله العلى القدير .

اقتربت من وردة حمراء اللون ، وقطرات الندى تغطيها فتزايد حياؤها وإستسلامها شهوة للناظرين ، وأحس بعينى تلتهمانها . وهى جميلة فاتنة جميلة ، ولقد خلقها الله لى ، فداعبتها وهى متقبلة دعابتى ، وتحسستها فصبغت أصابعى بشذيها . أحببتها فقبلتها وبأنانية انتزعتها ، أحسست بالشجيرة تبكى ، وبالوردة تزغرد . وضممتها إلى شفتى المشتاقتين ، ثم إلى صدرى وجلست ... وأصوات الخلق تتزايد فى تصاعد ، وأنا استشعر لذة ضمى إليها وهى فى روعة الخضوع ، وقد انسحبت نهائياً الخطوط السوداء وتألقت خيوط الصباح البيضاء . وأحسست شيئاً عند قدمى... إنها تلك القطة الساذجة . و حملتها .

وأخذت وردتى الحمراء بعيداً عن أسرتها المتمثلة فى الشجرة وعن قبيلتها وعن مدينتها إلى مدينة أخرى ، ومازالت بين أحضانى وفى حمای ، أنا رجلها وحبيبها . وكنت فى قمة النشوة وأنا أبدأ التحرك إلى بيتى ، وقدماى قليلاً فوق سطح الطريق ، وداعب وجهى فى لحظة شعاع أصغر ذهبى أرسلته شمس الصباح فى قبلة دافئة كأنها تهنئة بيوم جديد . .. فى عمرى ... المديد ... ! !

وعدت إلى حيث أنام ، ولم أنس أن أضع وردتى فى أحضان ماء فى كوب آثرت أن أضعه ناحيه شوق حتى إذا فتحت عيناها رأت الوردة الحمراء وهى تحب الورد الأحمر . وتبعتنى القطة حتى اتخذت لها مكانا بجانب السرير .

وأنا أطير فى الحجرة إرتياحاً وشكراً لله الذى أعطانى هذا الهدوء وأتجهت إلى حيث أضطجع وأسلم رأسى إلى الوسادة ... إحساس هائل فى سكينته وطمأنينته حتى أننى حسدت نفسى . ومع هذه اللذة الغامرة إنساب النوم إلى رقيقاً فى شفافية ملائكية .

وعادت شوق إلى ، وقد أعدت طعام الإفطار ، فى مرحها وثيابها

الأنيقة الرقيقة ووجهها الباسم المشع ضوءاً ... لم أره فى هذا الضياء والنقاء من قبل . ونادتنى بصوت رقيق وهى تجلس بجوارى وأصابعها تجوس فى شعرى كما تعودت ، ثم ... يدها على جبهتى ... شعرت أنها أحست برودة غير معهودة ... وتحسست وجهى ، فهو بارد : نادتنى ... لم أجب . هزتنى فى خوف يتفاقم ، وهزتنى ، ولا تجيب .

وضعت يدها على فمها إذ كادت الصيحة تدوى ، أما عيناها فواسعتان فى ذعر : ومرة أخرى تحسست الوجه وهزت الجسم ... وكانت الروح قد عادت إلى ربها راضية مرضية ، والجفنان مسبلان ، والوجه ناعم فى هدوء الطمأنينة ... وليست على الوجه ذرة من غضب .

أحمد ... مات ... والوردة ذبلت ، وانتفضت القطة الساذجة مذعورة مات ... مات أحمد .... ولم يكن غاضباً فقد عاش قبل موته سويعات تفاؤل .

تسهيلات جمركية لاستيراد الأفكار

وبدون تحويل عملة !!

يقول أحمد . . لعلنى مستطيع أن أسهم بعض الشىء فى مسار الحركة التربوية فى مصرنا العزيزة ، ولعل إسهامى فى الادلاء ببعض الانطباعات والآراء قد يفيد ، وقد عشت فى مجتمع غربى متقدم سنوات طالت ، وتعلمت وعلمت . وليس عيباً أو استشعارا بنقص أن نأخذ منهم ما قد يفيدنا من حيث نتائج تجارب وأبحاث ، ومن أفكار وآراء . لكن العيب أن نظل نقول إنه علمنا الغرب فى العصور الوسطى واستوردوا منا ، مسلمين عامة وعرب خاصة ، زبد الأفكار فى العلوم والإنسانيات ، ونركن إلى هذا التراث المجيد نباهى به .

تفوقنا عليهم بالأمس وهم يتفوقون علينا اليوم ، فلنستمع إلى ما يقولون دون حساسية . ولنأخذ ما نريد كما أخذنا السيارات والطائرات . . . وحتى

(الميكروفونات) التى ينادى البعض أمامها برفض المخترعات الأجنبية . بل هل يمكن أن نستبعد نتائج الانجازات الطبية والهندسية . . الخ ؟ ليس مما ينقص من قدر مجتمع ينمو الاستفادة من تجارب الغير المتقدم والنامى فى ميدان التربية على مستوى الأسس والركائز بعد تطويعها لتلائم المجتمع المصرى بظروفه وإمكاناته وقدراته المادية والبشرية . فالتربية كما تعلم عملية إنسانية فى المقام الأول ، والإنسان فى طبيعته هو هو فى الشرق والغرب : وإنما المجتمع يشكله بالصورة التى يريدها ، وقد ينجح أو لا ينجح ، لكن الطفل اليابانى بعد ميلاده بسنوات قليلة يتكلم اللغة اليابانية ؛ وليست العربية أو الإنجليزية .

يا أخى . . عند ما أتحدث إليك ومعك وأنقل بعض أفكارى فهى ليست نبتا كاملا من علمى لوحدى ، ولكنها ثمرة قراءات ومواقف خبرة سواء فى مؤتمرات أو حلقات دراسية تمخضت عن توصيات . . هى ثمرة من ثمار حياة فى الحقل التربوى عشتها وفكرت فيها وأفدت من خبرات غيرى وتفاعلت وهضمها عقلى فى استيعاب صار يغذينى وينمينى علميا فى قناعة رصينة أكيدة فاعلة ومؤثرة .

لهذا ترانى — يا أخى — استخدم صيغة الجمع ، ولا أقصد بها تعظيما لذاتى أستغفر الله ، ولكن اعترافاً بأن هذا ليس رأيى أنا .. فقط . لهذا أقول ، ونقول ، وليس لنا حول ولا قوة فى عملية التنفيذ ، ولكن لنا قوة فى أن نقول وأن نعبر عن رأينا . . وعن رأيى .

عند ما ندلى ببعض الأفكار ، إنما نلبى واجبا قوميا ، قد يقبل بعضها أو لا يقبل ، ليس هذا شأننا ، كما لانتدخل ولو قليلا فى أقل خطوة تنفيذية أو اتخاذ أى قرار . أقول (فى تواضع) من يعرف ماذا يقول ، وماذا تعنى أقواله ، وماذا ترمى إليه . الجدية تعنى الكثير ، الصدق رائدها ، والرغبة فى التجويد والتحسين هاديها ، والإيمان بالله والوطن منطلقها . . والله العلى القدير يرعانا جميعا .

• كيف يكون التعليم فى المدرسة أفضل ؟

• أن نلقى سؤالاً ، هذا شىء ، وأن نحاول الإجابة عنه ، فهذا شىء آخر ، ذلك لأن الإجابة تتضمن الكثير من المسائل والمشاكل شديدة التعقيد . بعض المسائل يمكن تناولها بالفكر والتعقل ، وبعضها يدعو إلى دراسة علمية موضوعية . وفى كلا الرأيين أو الموقفين فإن عمليات التطوير والإصلاح تظهر آثارها فيما سيحدث فى المدارس حيث يكون التعليم النظامى .

وحتى تتضح الأمور أكثر فإن تساؤلات كثيرة تفرض نفسها ، منها تساؤلات نابعة من اتجاه قد يحلو للبعض الذين يأخذون موقف « ليس فى الإمكان أبدع مما كان » وهو موقف مشبع بالسلبية قوامه :

– بذلت محاولات إصلاحية سابقة ، وكان هذا الذى نحن فيه هو أفضل موقف .

– تعانى البلد موقفاً اقتصادياً وصل فى وقت قريب إلى درجة الصفر وأمامها سنوات طويلة قبل أن تستطيع مجابهة الأعباء المالية المطلوبة لتطوير التعليم .

– فى غياب وعى الرأى العام بضرورة إسهامه الفعال مع الهيئات الحكومية ، فإن الإصلاح والتطوير أمران غير واردين . وجزء من هذا الرأى العام القطاع الخاص الذى ما زال يعتمد اعتماداً كبيراً على المجهودات الحكومية .

– حتى تكون للتطوير والإصلاح أرضية صلبة فليقلل المربون ورجال التربية وعالم النفس من هيمنتهم وسلطانهم على العملية التربوية وعليهم أن يشركوا معهم - وعلى قدم المساواة - تخصصات أخرى تعنيها التربية كما تعنيهم . . .

– كآباء وأولياء أمور .

— كعاملين فى تخصصات شتى فى المجتمع .

كل هذا جميل ويمكن أن يناقش ويطرح على مائدة البحث ، وقد نسلم ببعض ما جاء فيه ، فالمشاركة والمعاونة أمران ضروريان ، ولكن من المستحيل ترك الأمور على ما هى عليه فى المدارس وهى تزداد سوءاً . ولابد من عمل سريع ، دون انفعال أو تسرع . ويجب أن تكون هناك بداية لعمل حتى يصير العمل . . .

وقد ينادى نفر من الناس بدعوة لا تهمل كما أهملت الدعوة السابقة ، لا تهمل حركة التطوير والإصلاح . يدعو هؤلاء النفر إلى السير فى طريق التربية فإذا كانت هنا حفرة فى الطريق رتقناها أو غطيناها . ثم نسير على الطريق فإذا وجدنا بروزاً يعرقل المسيرة أزلناه حتى تستوى الأرض ، وهكذا . قد يتطلب الأمر فرقاً للعمل الإصلاحى ، وقد تعمل على واحد من الخطين الآتيين :

— فرق تعمل بطول الطريق فتتناول - على سبيل المثال - جانب الطريق الأيمن أو الأيسر وتعمل على إصلاحه ، كأن تتناول قضية الكتب المدرسية (من حيث مادتها وإخراجها . . . إلخ) ابتداء من الصف الأول الابتدائى إلى نهاية المرحلة الثانية . وفريق آخر يتناول إعداد المعلم لكافة المراحل ، وفريق ثالث يتناول المواد المهنية فى مختلف المراحل . . . إلخ .

— فرق تعمل بعرض الطريق ، فنقسمه إلى خطوط عرضية تؤدى إلى تجزئته إلى أجزاء ؛ قد تكون بالتحديد

— مرحلة ماقبل المدرسة الإبتدائية

— مرحلة المدرسة الإبتدائية (المرحلة الأولى)

— مرحلة المدرسة الإعدادية والمدرسة الثانوية (المرحلة الثانية)

فيتناول فريق المدرسة الإبتدائية مثلا من جميع جوانبها وأركانها ومشكلاتها ،

مثل المناهج والمبانى والتسرب . : الخ .ويتناول فريق آخر مرحلة أخرى . .الخ وهذا جميل أيضاً ، ولـكن من حقنا أن نتساءل :

— هل هذا أسلوب فعال فى معالجة قضية تطوير وإصلاح التعليم ؟

— وهل هذا هو أفضل البدائل ؟

وقد يرى نفر من القوم أن العملية التطويرية الإصلاحية تتسم بالشمول والتكامل . وهذا يستدعى وضع سياسة وإستراتيجية تتضمن مجموعة من البرامج المتكاملة والتى تشكل فى مجموعها عملا متسقاً فى علمية رصينة مؤدياً إلى الإصلاح التربوى .

الذى يعطى رأى هذا النفر من القوم أهمية هو أنه — عكس أولا — لا يتجاهل مافى العملية التربوية من قصور وضعف ، ولاهو — عكس ثانياً — ينظر إلى التطوير كجزئيات متناثرة إذا أصلحت جزءاً فيضيع الإصلاح بين أخطاء وعيوب جزء آخر . وما يعطيه أهمية أيضاً أنه يمكن تنفيذه منطقياً وعقلياً خاصة إذا وجد المساندة السياسية من الدولة .

وإذا أخذنا بهذا الإتجاه الشمولى التكاملى ؛ فتظهر مجموعة تساؤلات يمكن تحويلها إلى إفتراضات

— التغير حادث فى المجتمع ، وحادث بمستويات مختلفة فى العالم

— يشعر المجتمع المصرى أن هوة التخلف بينه وبين المجتمعات المتقدمة عميقة وتزداد عمقاً ،لأن تلك المجتمعات تتطور وتتقدم بأسرع مايحدث فى مصر

— إذا حدث تغير تربوى — إلى أحسن — فإن العلاقة بينه وبين إصلاح المدرسة سيؤدى إلى خيرها .

— هناك إشتراطات معينة للتغير التربوى

— هناك علاقة قوية بين سياسة الدولة والتغير التربوى

ويلوح أن دراسة هذه الإفتراضات وتحليلها سوف يؤدى إلى وجود تسلسل منطقى للعملية الإصلاحية التربوية التى يحتمها المجتمع اليوم .

إن هذه العملية ضرورة سياسية وإجتماعية وإقتصادية وإلا إنعزلت المدرسة عن متطلبات المجتمع ووجدت نفسها جزيرة صغيرة وسط أمواج متلاطمة بعيدة عن أرض الواقع الشاسعة ، أو أنها تعيش فى ماض لايهم الحاضر والمستقبل إلا فى أمور قليلة .

وعند ما نتحدث عن التغير التربوى فنعنى هذه المحاولات المخططة أو / و المستحدثات المتعمدة والمؤثرة على العملية التربوية . إن مجرد معرفتها أو الإلمام بها دون استخدامها لا يحدث بالطبع تغيراً . كما أن سوء استخدامها كالتسرع وعدم الاستعداد الكافى لها ، لا يحدث تغييرا .

وعند ما نتكلم عن اشتراطات مسبقة للتغير فنعنى مجموعة اعتبارات يجب تواجدها وفعالياتها حتى يحدث التغير والإصلاح فى المدرسة ، فيتطلب الأمر مثلاً نوعية معينة من المدرسين فى إعدادهم الأكاديمى والمهنى والثقافى ، وقد يتطلب الأمر مقررات معينة لها طرائق تدريس خاصة بها . . . . . الخ

وعند ما نقول إن هناك علاقة وثيقة بين سياسة الدولة والتغير التربوى ، فنحن هنا نؤكد أهمية التربية السليمة على تطوير وتقدم المجتمع ، ثم أن التعليم فى مجتمعنا الاشتراكى الديموقراطى هو مسئولية الدولة وهى التى تنفق عليه ، وعليه هو بالتالى أن يعمل على تحقيق أهداف المجتمع وصولاً إلى تقدم ورقى .

وبهذا قد تتضح الصورة على النحو التالى : أهداف المجتمع تؤدى إلى وضع سياسة عامة لتحقيق هذه الأهداف ، وتشتق التربية فلسفتها وأهدافها من فلسفة المجتمع ، ثم تضع البدائل لتحقيق هذه الفلسفة والأهداف ، ثم تتخير استراتيجية معينة تخطط على أساسها الأعمال التربوية ثم تنفذها . وهنا يحدث التغير فى المدرسة الذى — آملين — يؤدى إلى تعليم أفضل مما يحسن نوعية الأفراد بدرجة تؤهلهم لتحقيق أهداف المجتمع .

وحتى لا يكون هناك خلط أو حيرة فنحن نتحدث أحياناً عن تغير تربوى وأحيانا عن إصلاح المدرسة ، فالإصلاح يعنى زيادة حسنة فى تعلم التلاميذ ،

بينما يعنى التغير ما يحدث للبنية والهيكل المدرسى من تعديلات ، وتشمل أيضاً ما يتم داخل المؤسسة التعليمية (المدرسة) مؤثراً على المتعلمين . ومن البديهى إذن القول بأنه لا اصلاح دون تغير ، كما أن الإصلاح لا يتم بطريقة آلية عند ما يبدأ التغير يحدث . ويمكن القول أيضاً إنه يشترط لحدوث الإصلاح شمولية وتكامل التغير التربوى .

ونحن عند ما نضع معياراً للحكم على مدى ما حققه الإصلاح من نجاح ، فيجب أن يكون هذا المعيار دينامياً غير ثابت لأن التغير التربوى يجب أن يكون مستمراً لا يتوقف . ولهذا ، أيضا ، فإن عملية فحص وتقييم الإصلاح يجب أن تكون مستمرة لأن المجتمع يتغير .

هذا ما نحن فى حاجة ماسة إليه ، إذ أن العمل المدرسى لم يصبه تحسين معقول منذ مدة طويلة — بل إن التحسن جزئى .

وقد يحدونا شىء من التفاؤل فنأمل — وهذا حتمى علمياً — أن تكون معايير الحكم على نجاح الإصلاح مواكبة للتقدم فى المجتمع . فهو إذن — ولا يجب إلا أن يكون — معياراً متغيراً .

إصلاح التعليم فى المدرسة إذن يجب أن يعمل لتحسين نوعية المتعلم من جميع نواحيه . ولكن الأمر الواقع مثير فيما وصل إليه من تلكؤ يكاد يكون جسيماً فيما آلت إليه العملية التربوية داخل المدرسة . ولكل نقص من وما يبرره ، وقد نحترم المبررات لكن لا نستطيع إلا أن نتحداها إذا أردنا إصلاحاً وتقدماً . وتحولت العملية التربوية إلى مسخ سداه ولحمته كم من المعلومات تحشر حشراً فى عقول المتعلمين إما عن طريق مدرس الفصل المدرسى أو كتاب ملخص أو مدرس خصوصى . شجع على هذا ، بل دعا إليه نظام امتحانات عهدناه من أيام الاحتلال البريطانى بما فيه من التأكيد الساحق على حفظ المعلومات واستظهارها على ظهر القلب ، وبأية صورة كانت .

وتحول معظم العمل فى المدرسة اليوم ميمماً شطر هذا (الهدف) ، بل تحول مفهوم (الإصلاح) فى المدرسة إلى الارتفاع بنسبة النجاح ، وبلغ الأمر ذروته عند ما حقق بعض الطلبة نجاحاً فى الثانوية العامة بمجموع أكثر من مائة فى المائة !!! وهذه معجزة العالم الثامنة فى الربع الأخير من القرن العشرين ، بل هو اختراع مصرى كاد يجعل العملية التربوية السليمة ترفع الراية البيضاء . وتمر جيوش التلاميذ تحيى هذه الراية التى احمرت خجلاً ليدخلوا الجامعة والمعاهد العليا وكانت فى رءوسهم عند ما دخلوا امتحان الثانوية العامة كميات من المعلومات ضاع بعضها أمام (شبابيك) مكاتب التنسيق .

وتستكمل المسرحية مهزلتها فالشكوى مستمرة من أساتذة الجامعة لهذا المستوى المتدنى ، وقد لجأ بعضهم إلى هذا المد المادى العائد من الدروس الخصوصية وتحولت بعض المناطق الجامعية إلى مدارس ثانوية كبرت أعمار تلاميذها وحمل أعضاء هيئات التدريس فيها الماجستير والدكتوراه .

إذن ما العمل ؟

المفتاح فى تصورنا يكمن فى عملية إصلاح المدرسة وهو مختلف ولكنه مرتبط بالتغير التربوى كما سبقت الاشارة . والتغير التربوى يشتمل ، وما زلنا بصدد عملية الإصلاح المدرسى ، على مجموعة جوانب تتسم — وهذا تكرار غير مخل — بالشمولية والتكامل .

ويجدر بنا قبل أن نتناول نطاقات الاصلاح المدرسى أن نضع أسساً هى ركيزة قوية لهذه العملية الاصلاحية :

— إن الاصلاح فى أى نطاق أو جانب لا يعنى مطلقا أن العمل فى المدرسة قد أصابه النجاح ، بل هو واحد من سبل شتى تعمل متعارضة فى تكامل لكى تتم عملية الاصلاح . ونحن هنا نؤكد أيضا على أن عملية الرتق الجزئى قد تظهر وكأنما ثمة شعاع إصلاحى وضح وخطوة جزئية نحو الاصلاح قمينة بأن تثير عند البعض الكثير من

الفرح والاستبشار ، ثم تخف الحدة ويقف الأمر عند هـذا الحد : . . . وهنا تكمن الخطورة .

— لكن لا بد من بداية ، حتى ولو كانت على مستوى الجزء ، أى نبدأ من نطاق معين سرعان ما ينتشر مؤثراً على بقية النطاقات . وهنا يظهر التساؤل : من أين نبدأ ؟ هل يكون المعلم هو نقطة البداية ؟ ماذا يستطيع أن يفعل وبقية جوانب العملية التربوية داخل المدرسة تئن ضعفاً وهزالاً ؟ هل نبدأ بإصلاح وتطوير المناهج الدراسية ، وهو مدخل بناء ما فى ذلك شك ؟ ولكن هل أعد المعلمون وأعد المبنى المدرسى . . . . الخ لتقبل هذا التطوير ؟

وإذا اقترحنا أن تكون البداية على خط أفقى يتضمن كل النطاقات

— وهو أمر منطقى معقول — فكيف يتم هذا أمر يحتاج للدراسة يتضافر فيها كل العاملين أو المسئولين عن هذه الجوانب المتعددة .

— ونتساءل أيضا عن العلاقة بين التغير التربوى أو التغيرات التربوية اللازمة للإصلاح المدرسى . هى علاقة رصينة قوية ، فالإصلاح يتم بناء على التغير أو التغيرات التربوية ، وهذه الأخيرة وطيدة الصلة بالسياسة العامة .

— ثم هناك التساؤل الرابع أو القضية الرابعة ومضمونها مدى كفاية التغير لحدوث الإصلاح ، أو بمعنى آخر ما يدرينا أنه لو حدثت التغيرات التربوية فهل هى كافية وحدها لحدوث الإصلاح فى المدارس وبالتالى إلى تحسين نوعية التعليم مما يؤثر على تكوين مواطنين أفضل من جميع النواحى . إذ أن هناك عوامل أخرى — أو قل أوساطاً أخرى — ذات فعالية قوية وواضحة على الأفراد المتعلمين ، إلى الدرجة التى يمكن أن تجعلنا نصرح بأن مؤثرات من المجتمع أو من البيت قد تقلل من نتائج عمليـة الإصلاح المدرسى . والشواهد أمامنا لا نشك فيها .

محاولة تشريح الركائز

• المناهج والمقررات الدراسية هى واحدة من هذه الركائز . والمنهج أشمل وأعم من المقررات فهو يتضمن جميع المناشط المنظمة التى تقدم إلى المتعلمين ، ومنها ما يدور داخل الفصل ومنها ما يحدث خارجه ، ومنها المقررات الدراسية . والمقررات كثيرة ، ولا ننكر أن بعضها قد تطور ولكن هذا التطور قد شمل :

— استبعاد جزء من المقرر

— إضافة جزء إلى المقرر

وافتقد إلى النظرة الشاملة المتكاملة من حيث

— التكامل فى المادة على مستوى التسلسل والنمو خلال سنوات الدراسة التى تدرس فيها

— ارتباطها بغيرها من المقررات الدراسية

— ارتباطها بالمناشط الدراسية

ويتمشى مع هـذا الحديث متطلبات أتناولها فيما بعد ترتبط بأمور هامة مثـل

— فى حالة تغيير مقرر ما يجب أن تكون هناك دراسات تجديدية للموجهين والمدرسين

— تجارب ودراسات استطلاعية فى مدارس من بيئات مختلفة وتحت إشراف دقيق

— يتم خلال هذه التجارب تأليف كتب دراسية ، هى أيضاً على مستوى التجريب

— تقييم كل ما سبق واقتراح الحلول المناسبة

ومرة أخرى وأخرى ما يحدث كما هو مقترح يجب أن يحدث من نطاق خطة شاملة متكاملة . إذ أن نموجزء من خطة دراسية بينما بقية الأجزاء تقف موقف المتفرج أمر غير مقبول لا منطقيا ولا علميا. وقد حدث هذا فى تجربة الرياضيات الحديثة ، فقد بدأت بينما ما زالت لجان تطوير تدريس العلوم وتدريس اللغة الانجليزية ، وتحسين تدريس اللغة العربية و و . . . الخ ما زالت تعمل وتأمل أن تكلل مساعيها الحميدة بالنجاح .

وضاع التلاميذ فى غياب نظرية أو فلسفة واضحة للعملية التعليمية فى المدارس ، وتاهوا . ولكنهم وجدوا طريقهم سريعاً ، فما أسهل أن يحفظ الواحد منهم إذا أراد النجاح ، ولعل أسرته أشد منه رغبة فى هـذا النجاح فهى مصيبة تبلغ حد الكارثة إذا لم يلتحق ابنهم أو ابنتهم بالجامعة .

وهذا مفهوم يجب أن يتغير ، وقد تكون من عوامل تغييره بدائل كثيرة وغزيرة فى المقررات التى تطرح فى مدارس المرحلة الثانية . وقد يكون من عوامل تغييره بدائل أخرى لبنية وهيكل التعليم فى المرحلة الثانية . ثم نظرة متحررة فى غير مس لمشاعر الرأى العام إلى امتحان الثانوية العامة والقبول فى الجامعات والمعاهد العليا .

• **الإمكانات البشرية فى المدرسة** ، وهذه ركيزة أخرى وجانب آخر من جوانب الاصلاح المدرسى ينبثق أيضا من التغير التربوى ويتضمن هذه الجيوش من المدرسين والموجهين والإداريين ، أطال الله أعمارهم وازدادت اعدادهم فنحن فى أمس الحاجة إليهم . ولكن من هم ؟ ومن أين تخرجوا ؟ وماذا يعملون ؟

فى وقت مضى ضمت المدارس مدرسين يحملون مؤهلات بلغت ٧٥ مؤهلاً مختلفاً ، بعضهم حمل البكالوريا وبعضهم راسب بكالوريا ، بعضهم حمل كفاءة التعليم الأولى بأنظمة مختلفة . . . و و الخ . ويمكن أن يقسم

المدرسون عامة إلى مدرسين مؤهلين تربوياً ، وإلى غير مؤهلين . والأمر الهام ، والهام جداً ، أن يعهد إلى كثيرين من غير المختصين بتربية الأجيال الصاعدة فى وقت بلغت فيه كثافة الفصل الدراسى إلى أكثر من خمسين طفلا هم فى أشد الحاجة إلى معلم قادر كفء يستطيع التعامل الفعال فى مدرسة تجابه تحديات عنيفة من المجتمع بما فيه ومن فيه .

سبقنا الكثير من المجتمعات المتقدمة فصار إعداد معلم المدرسة الابتدائية يتم تحت قبة الجامعة ، وتفكر بعض الدول العربية فى هذا النهج . إذ أن طفل اليوم غير طفل الأمس ، ولذلك فهو محتاج إلى نوعية من المعلمين تختلف فى إعدادها الأكاديمى والفنى عما هو موجود الآن .

سبب هذا ، وفوق كل هـذا أن المرحلة الابتدائية بالفعل ركيزة المراحل التالية لهؤلاء الذين يريدون استكمال تعليمهم . كان عريف الكتاب أيام زمان مضى رائعاً فى عمله ، فقد علَّم القراءة والكتابة ومبادئ الحساب ، وحفَّظ القرآن الكريم أو شطراً منه ، وكان ذلك ممتازاً فى ذلك الوقت . ولكن الظروف تغيرت والأحوال تبدلت ، فالدنيا تطورت ، ولم يعد الكتاب مرحلة منتهية أو معده لمرحلة أخرى . فقد جد فى الأمور كثير . ونحن لا نستطيع أن ننكر أهمية دور العريف — بل قد نحتاجه اليوم فى صورة أو أخرى — ولكن نظرة شاملة تضع مكانه تحت عـلامة استفهام : نجله ونحترمه ، وقد نطوره ، وقد نلغيه . قد يعاون مدرس المدرسة الابتدائية ، وقد يكون فاعلاً بقوة فى المرحلة السابقة للمدرسة الابتدائية ، فهو يجمع بين إمكانات تعليم متواضع ولكنه مدعم بقيم دينية إيمانية . هذا أمر هام وارد . ولا يجب أن ينسى ، إذ هناك فعلا قوى بشرية موجودة وتستطيع أن تسهم ، ونحن نريد من يستطيع أن يسهم .

وعود إلى القوى البشرية التربوية فى المدارس الابتدائية . وقد نقسمها

إلى فئتين — تمشياً مع النظام القائم — فئة مدرس الفصول أو مدرس الصفوف ، وهؤلاء الذين يدرسون الصفوف الأربعة الأولى ، مدرس الصف أو مدرس الفصل هو الذى يدرس جميع المواد الدراسية باستثناء مواد مثل التربية الفنية والرياضية . إن الغالبية العظمى من هؤلاء من خريجى دور المعلمين والمعلمات . والجـــدد منهم تتراوح أعمارهم بين الثامنة عشرة والعشرين . وهذا عمر غض لين هين ، نفسانيا واجتماعيا تشغلهم أمور فى الدنيا وفى المستقبل أكثر — فى تصورنا — مما تشغلهم أمور التربية الحقيقية الفاعلة . هم شباب يتطلعون ، خبراتهم الدنيوية محدودة ، بل إن نظرتهم إلى مستقبلهم المتأثر بحاضرهم تجعل فعاليتهم محدودة إزاء أطفال ليسوا قططا عمياء ، ولـكن لهم عقولاً تتفجر بالتساؤلات .

إن علم هؤلاء الشبان ضئيل أمام هذا التفجر المعرفى وتحديات وسائل الإعلام ، وخبراتهم الحياتية متواضعة فى خجل ، وما تعلموه عن سيكولوجية الأطفال شذرات هينة مع طرائق تدريس قد تصلح لربع قرن مضى ، مع إمكانات مدرسية فيها من الهزال الشىء الكثير ، ثم فوق كل هذا راتب متواضع .

بالله ، أية قوة ترفع هؤلاء إلى المستوى المطلوب ، وهو مدرس (بل مدرسة) قادرة علمياً ومهنياً وعاطفياً على التعامل مع أطفال الخمس الأخير من القرن العشرين . هم أطفال لديهم محصول لغوى ، فى بعض كلماته ، لم يعرفه مدرسو هؤلاء المدرسين منذ عشرين سنة الماضية .

إختلفت مدرسة التعليم الابتدائى اليوم — بالفعل — عن مدرسة التعليم الابتدائى منذ عشر أو عشرين سنة مضت ، ولـكن المناهج تطورت تطورا لا يواكب هذه الفترة الزمنية . ومع ذلك فإعداد المدرس (وخاصة مهنياً) كاد أن يظل كما كان . الدليل الحاسم على هذا ما يسمى بالتربية العملية .

وأمرها يغيظ فى وقت قيل فيه إن ما يدرس فى ست سنوات يمكن اختزاله لكى يدرس فى أربع سنوات وبنفس الكفاءة . يبقى إذن المدرس الذى يستطيع هذا ! !

إعطونا مدرساً (مدرسة) قادرا على العطاء الحق ، نعطكم تلميذا لديه :

— قدرة على المواطنة الصحيحة إذا انتهى تعليمه عند حد المدرسة الابتدائية

— أو قدرة علمية على متابعة التعليم فى المراحل التالية

نقول فى عزم إنه من السهل أن تعلم فى المرحلة الثانية (اعدادى — أو متوسط — وثانوى) ، ومن الصعب أن تتعامل مع العقول اليانعة فى مرحلة التعليم الأولى .

نقول إن التقدم فى المجتمع — وركيزته التربية — يبدأ من هذه المراحل المتقدمة فى التعليم . ولكى يتقدم التعليم فى هذه المراحل المبكرة لا بد ، بل لابد ، من إمداد هذه المراحل بالقوى البشرية القادرة فى كفاءة واقتدار على التدريس فى هذه المرحلة وتربية أبنائها .

ثم ننتقل إلى المرحلة الثانية — اعدادى (أو متوسط) وثانوى .

هذه قضية قد تقل حدتها إذا اعتنينا فعلا بالعاملين بالمرحلة السابقة . فإذا جاءنى تلميذ متمكن قادر ، فالأمر هين ، أما إذا انفتحت الأبواب — وهى مفتوحة الآن — فالأمر جد عسير .

ويكاد يكون الأمر متكررا ، فى المدارس الاعدادية والثانوية أعداد غير قليلة أرسلتها القوى العاملة للتدريس . وهذه فى حد ذاتها خطر تربوى لا يمكن تجاهله . فمن لا عمل له ، فالتدريس مهنة له . هذا امتهان

لعملية التربية . نحن نسلم بأن الالحاح دعا وزارة التعليم إلى تعيين جيوش جرارة فى سلك التدريس لسد نقص فرضته ظروف اقتصادية وعسكرية لا تخفى على أحد . ونحن نسلم بأن كليات التربية لم تستطع إلى اليوم أن تسد أو تشبع جوع وزارة التعليم إلى الدرجة التى عينت مدرسين يدرسون فى غير تخصصاتهم ، كخريجى أقسام التاريخ والفلسفة لتدريس اللغة الانجليزية . وكانت النتيجة احباطات عند المدرسين وفقر مدقع عند المتعلمين .

لا نستطيع أن ننكر أن الملتحقين فى كليات التربية دخلوا أقساماً لها أكثر من رونق

- الرياضيات والعلوم واللغة الانجليزية . . . الخ لما وراءها من دروس خصوصية وإثراء مادى
- تخصصات فى مواد لها الزهو الأكاديمى كالفلسفة
- تخصصات عرف عنها السهولة كالتاريخ والجغرافية (هذا فى نظر الطلاب) . . . الخ

كما لا نستطيع أن نتغاضى عن الحقيقة الواضحة فى أن معظم الملتحقين فى كليات التربية — والكلام هنا لمكاتب التنسيق — هم أصحاب المجموعات المتواضعة . وهذه أيضاً مصيبة ، أن يعهد إلى تربية أجيال المستقبل إلى ذوى التحصيل الدراسى المتواضع . (نحن لا ننكر أن من بين أصحاب المجاميع العالية فى الثانوية العامة من لا يحققون بالضرورة تفوقاً فى كليات الطب والهندسة والصيدلة . . . . الخ) :

وعلى أحسن الظروف فإن نسبة مئوية مقبولة من المدرسين فى المرحلة الثانية (اعدادى وثانوى) نالوا قسطاً من الإعداد المهنى ، ولكن قدرتهم الأكاديمية — من حيث المادة التى يقومون بتدريسها — متواضعة . ولذلك

انتشرت واستشرت الدروس الخصوصية إلى الدرجة التى يفكر الآن تقنينها ، بل وإلى خضوعها لنظام الضرائب المعمول به فى الدولة ، فيعفى المدرس من الـ ١,٥٠٠ جنيه الأولى ثم يدفع بعد ذلك ١١ ٪ من دخل الدروس الخصوصية .

هذا هو تكافؤ الفرص وهذه هى ديموقراطية التعليم ! ! !

المعنى الصريح الواضح لهذا أن التعليم النظامى الديموقراطى تحول إلى تعليم رستوقراطى خاص تحت رعاية مصلحة الضرائب ! ! !

إذ نعبر عن رأينا من منطلق أننا مجتمع اشتراكى ديموقراطى نقترح فيما يختص بالمدرسين العاملين فى المدارس الحكومية الآتى :

إعادة النظر جذرياً فى إعدادهم من حيث ضرورة تخرجهم من كليات تربوية وهنا قد نقترح الآتى :

- وحتى ست أو ثمان سنوات قادمة يحد القبول بالكليات والمعاهد التى لا تعد معلمين (كالطب والهندسة والصيدلة والزراعة والتجارة والآداب . . . الخ) إلى القدر الذى تحتاجه خطة التنمية دون أية اعتبارات أخرى
- يدخل بقية الحاصلين على الثانوية العامة أو الثانوية الفنية كليات التربية وما تناظرها من كليات أخرى تعد خريجها للعمل فى التدريس
- تمد كليات التربية (وعددها فوق العشرين كلية مع الكليات والمعاهد التى تعد لمهنة التدريس بالقوى البشرية الموجودة فى الكليات والمعاهد التى صار فيها تحديد دقيق لمن يلتحقون بها .
- ترصد حوافز مادية مجزية (قد تصل إلى مرتب المدرس فى أول تعيينه) للطلبة الملتحقين ليكونوا مدرسين .

— إعادة النظر جذرياً فى كادر المعلمين من حيث بداية التعيين والعلاوات والترقيات وغيرها من الحوافز .

إن المجتمع الذى يتهاون فى تربية عقول أبنائه إنما هو مجتمع ينتحر عقلياً وثقافياً وخلقياً واجتماعياً . . . هو مجتمع يتخلف حضارياً ، ولا يجد له مكاناً تحت الشمس ، مكاناً راسخاً ينطلق منه مع المنطلقين . نحن نريد أن ننطلق :

— أما عن المدرسين الحاليين فمن المحتم أن يمروا فى دورات تدريبية ذات طابع أكثر إثماراً . وقد تم فى بعض كليات التربية ذات الإمكانات البشرية الكافية ، وقد تكون هناك مراكز للتدريب ، واحد فى أسيوط يستعين بهيئات التدريس بكليات التربية فى الوجه القبلى ، وواحد فى القاهرة ، ويستعين بكليات التربية واعداد المعلمين بالقاهرة ، وواحد فى طنطا أو الزقازيق ، وواحد بالأسكندرية بنفس طريقة الاستعانة . وعندما نقول تدريباً أكثر اثماراً فنقصد نظرة حديثة متطورة للتدريب . وقد تعقد الدورات التدريبية صيفاً ، وهذا أفضل ، وقد يعقد بعضها فى المصايف . . . . . وقد تعتمد على الورش الدراسية ويمتد التدريب فيشمل النظار والموجهين ، وقد تتاح الفرص لبعضهم لزيارات ودراسات خارج جمهورية مصر العربية ، وهذا أمر شديد الأهمية ، فيذهب المئات فوراً إلى الخارج بالاستعانة بالهيئات والمؤسسات الدولية . . . وقد منّ الله علينا بعصر سلام وانفتاح وتقبل من الغير للإسهام فى تقدم مجتمعنا .

يا أخى . . .

وقد يستمر الحديث فى اتصال ويطول ، ولكنه حديث عن الوضع الراهن فى المدارس ، وهو وضع فى تصورنا فى حاجة إلى تغيير وتطوير ، وهو حديث طويل ولكن لنأخذ على سبيل المثال موقف المدرسين فى المدارس الصناعية وهم يندرجون تحت :

- مدرسو المواد الأكاديمية
- مدرسو المواد المهنية
- مدرسو المواد الثقافية

ولكل من هذه الفئات مواصفات معينة . وواقع الأمر أن شرطا أساسياً أو واحداً أساسيا من هذه المواصفات مفقود إذ أن كل فئة تعمل فى وادٍ ولا صلة بينها وبين الفئتين الأخرتين ، والنتيجة تفتت وتفكك .

• **المناخ التعليمى داخل المدرسة وهذا صلب الركيزة الثالثة**

المفروض فى مجتمع الخمس الأخير من القرن العشرين أن يجد من المدرسة مواكبة إيجابية تساند تطوره وتعينه على مزيد من التطور . ولكن الذى يحدث فى المدرسة المصرية أمر غريب . مدارس الأمس فى الثلاثينات والأربعينات والخمسينات كانت أفضل مناخاً ، وبالتالى أكثر إثمارا .

لقد تعب هذا المشجب الذى ناخ بمـا نعلق عليه من سلبياتنا ، فكل شىء تقريباً نرجعه إلى الانفجار السكانى فى مصر ، وهذا سبب يراه البعض وجيهاً ويستريحون . هؤلاء الذين تعدوا اليوم سنى الخامسة والأربعين لعلهم يذكرون مدارس الأمس ، ولم يكن تميزها عن مدارس اليوم أن كثافة الفصول أقل ، ولكن كان المناخ التعليمى أفضل .

نعم كانت هناك اضرابات فى كثير من المدارس ولكنها كانت ضد مستعمر طاغ ، ربما جمع هذا الطلبة نحو تحقيق هدف . ولكن كانت هناك طاعة لإدارة المدرسة وللمدرسين واحترام موجود . اليوم صار إعجاب بتلاميذ (مدرسة المشاغبين) وصار إعجاب للأبناء عندما يتحدون الأب والمدرس ، بل صار إعجاب بهؤلاء التلاميذ الجهلاء أو الأطفال القادرين على التخطيط وحبك المؤامرات فى بعض ما تقدمه وسائل الإعلام المكتوبة والمرئية والمسموعة . . . .

مناخ تعليمى غير نقى تماماً ، فعمل المدرسة حاصل لتحقيق أهداف ضبابية ، والصلات الاجتماعية داخل المدرسة فيها الكثير من العواصف الرعدية ، والعاطفة بين المتعلمين والمعلمين باردة صيفاً وشتاء ، لا لأن كثافة الفصول إزدادت عددياً وكمياً ، ولكن لأن روح الجماعة أغرقتها سيول من اللامبالاة سببتها غيبة من القيم الإيمانية وراء سحب كثيفة .

والشكوى مرة بل هى تزداد مرارة . وقد نتلمس العذر لوزارة التعليم فيما لم تفعله ، وكان واجباً عليها أن تفعله . ولكن اقتصاد الحرب كثّف المناخ التعليمى فى المدارس غالباً كما يقولون .

ولا نريد أن نقبل هذا الكلام فكان من الممكن الا تكون المدارس الصناعية والزراعية والتجارية عالة على الحكومة ، بل كان من الممكن أن تنتج وتكفى نفسها بنفسها بل ويفيض عن حاجتها . كان من الممكن أن يخفض عدد الطلبة فى المدارس الاعدادية والثانوية بصورتها الراهنة ومزيد من تلاميذ المدارس المهنية . هذا يدفعنا إلى الركيزة الرابعة .

• التمويل

وقد يكون الحديث عن التمويل حديثاً يوصد أبواب المناقشة . ولكن عند ما نتقدم باقتراحات بصدد تطوير وتحسين العمل فى المدرسة فإننا نؤكد مراراً وتكراراً أن البشر هم ثروة المجتمع ، وهى الثروة النامية باستمرار إذا أحسن تربيتها . هى القادرة على حسن استخدام القليل فيما يعود على الجميع بالنفع والكثير .

ليس لدى اليابان ثروات بترولية أو معدنية إلا فيما ندر ، ومع ذلك فإن الين اليابانى يهز عملة أغنى دولة على الأرض . القوة تكمن فى البشر ، والتربية السليمة هى التى تكون هذه القوة .

أمل فى عصر سلام تنال فيه التربية المزيد والمزيد من التمويل إذ أن مشروعات بناء العقل المصرى ، بناء البشر على أرض مصر يجب أن تنال ما تناله مشروعات بناء السد العالى أو الكبارى العلوية . إن نقصاً فى حديد التسليح أو الأسمنت ربما يؤدى بمشروع ما إلى الإنهيار . ونحن نريد لعقول وأجسام وإيمان أجيالنا الصاعدة أن تنمو فى قوة وفى عزة حتى تعطى للوطن عطاء عظيماً .

ليس هناك تناقض فيما نقوله الآن وما قلناه فى (ثالثا) عن المناخ فى المدرسة ، ولكنه يعززه ويقويه مؤدياً إلى سماء صافية ونسائم تربوية تحملنا إلى التقدم .

وعن التمويل نطرح تساؤلات

— أين دور المؤسسات والشركات الخاصة من تمويل لمشروعات تعليمية تعود عليها وعلى المجتمع بخير ؟

— هل تتاح للطالب الفاشل بالاستمرار فى التعليم المجانى مع رسوبه وتكرار هذا الرسوب وخاصة فى التعليم العالى ؟

— مع إيماننا بالاشتراكية والديموقراطية فهل يعفى القادر مالياً — وعن سعة — من دفع مصروفات مثله مثل غير القادر ؟

— هل مع انتشار الدروس الخصوصية بأجورها الخيالية يتحقق مبدأ تكافؤ الفرص وديموقراطية التعليم فى ظل نظام اشتراكى ديموقراطى؟ و و . . . الخ

عالم النماذج المثير

أعود إلى بعض ما قلته الآن فى شىء من التبلور التصورى ، فالأمر السليم يحتاج إلى دراسات علمية جادة ونحن فى سبيل وضع بدائل تعتمد على أمرين

— الأهمية الكبرى للتقنيات الحديثة فى التعليم

— الصلة الوثيقة بين سياسة الدولة والتعليم

وبادئ ذى بدء فنحن لا نحاول استيراد أنظمة أو أفكار تعليمية ونزرعها زرعاً كما هى فى أرضنا ، ولكن لا بد لنا من التعرف على ما يجرى فى الخارج حتى نستفيد بما يمكن أن يفيدنا فى ظل من إمكاناتنا (بشرية ومادية) وتراثنا وبالقيم فى الدرجة الأولى .

كما كان للاصلاح المدرسى اشتراطات ومواصفات معينة ، فكذلك الأمر فيما يتعلق بالتغير التربوى . إذ هناك اشتراطات مسبقة حتى يمكن للتغير التربوى أن يحدث ، ثم هناك — بالضرورة — علاقات بين هـذه الاشتراطات المسبقة .

نحن نعرف القليل عن ديناميات التغير التربوى . وهذه المعرفة مطلوبة لتكوين نظرية عن هذا التغير ، ويمكن لهذه النظرية أن توّصف بدقة الظروف الضرورية والكافية لهذا التغير فى العملية التربوية . فقد يكون هناك تصور ما عن تعليم مهنى ما ، وهذا التصور يستدعى تغير ما هو قائم فعلاً . ولكن لكى نضع نظرية هذا التغير فهناك ديناميات معينة يجب أن تدرس بدقة حتى تصير عملية التغير .

لكى يتبلور التصور إلى واقع لا بد من دراسات علمية موضوعية ، هذا أمر شديد الأهمية .

قصور هذه المعرفة عن ديناميات وعملية التغير تجعلنا حذرين فى الكلام عن تطوير للتربية ، بل إن هذا القصور هو فى حد ذاته محدد لتخطيط سياسة إصلاحية . ولكن باب التصور المستقبلى لا يوصد ، بل يظل مفتوحاً .

والسؤال الآن هو

ما الاشتراطات المسبقة للتغير التربوى ؟

فى رأى جمهرة المربين أن هناك مجموعة من المفاهيم أو المدركات تثير بعض الاقتراحات التى يُحتم أن تكون موضع الفحص

— مفهوم يرى أن التغير التربوى عملية بحث ونمو متطور وانتشار

— مفهوم يرى أن التغير التربوى عملية نمو تنظيمى

— مفهوم يرى أن التغير التربوى عملية نمو القوى البشرية

— مفهوم يرى أن التغير التربوى عملية سياسية

• المفهوم (أو النموذج) **الأول** هو غالباً أكثر النماذج شيوعاً ، وينظر إلى التغير فى هذا النموذج على أنه نتاج عملية ذات أربع مراحل : عن طريق البحث التربوى تنتج معرفة جديدة (بالطبع معرفة تربوية أو معلومات تربوية أو نتائج . . .) . وتستخدم هذه المعرفة كأساس لظهور أو/و نمو منتجات تربوية جديدة ، بل وإلى إجراءات وعمليات جديدة . ثم توزع هذه المستحدثات على صانعى القرارات التربوية ثم إلى منفذيها . ومن هنا تستقطع أجزاء لتجرب فى مدارس قليلة كدراسات استطلاعية ، ثم تقيم . . . الخ

وعلى هذا ، فإن اشتراطات التغير التربوى تبعاً لهذا النموذج هى فيما يلوح :

- التوسع فى المعرفة الأساسية والتطبيقية عن التعليم وطرق التدريس والمدارس وما يدور فيها من أنشطة وغيرها . . . الخ
- وجود جهاز مسئول عن توصيل نتائج البحوث التربوية إلى المسئولين عن المستحدثات ، ثم عن توصيل هذه المستحدثات إلى حيث تستخدم وبطريقة فاعلة
- التوسع فى نوعية وكم المستحدثات التربوية الموجودة فى المدارس ، بل والأمر الهام مدى وكيفية استخدام هذه المستحدثات ، وهى لا تعنى فقط أجهزة وأدوات . . .

ونحن لا نقلل مطلقاً من أهمية البحوث التربوية الجارية والسابقة ولا نقلل من أهمية ما تقوم به الأجهزة الفنية بوزارة التعليم ، ولا بما تسهم به المجالس القومية وغيرها من المؤسسات المهتمة بشئون التربية والتعليم ، ولكن عمليات نشر الجديد والتوعية به محدودة الفاعلية . بل إن الرسائل العلمية التى أجازتها الجامعات قد لا يرجع إليها إلا باحث يستعين بشىء منها . ولكن التوصيات لم تجد طريقها إلى المسئولين عن تطوير التعليم وتحسينه .

لهذا ، فنحن نتساءل هل هذه الاشتراطات الثلاثة ضرورية وكافية لإحداث تغير تربوى يؤدى إلى إصلاح مدرسى ؟ هى اشتراطات ضرورية ولكنها غير كافية ، وذلك لأن المعلومات التى لدينا عن النطاقات التى ورد ذكرها سابقا محدودة للغاية فى قيمتها العلمية ، إذ أن بعضها لم يساير التطور الحادث عالمياً ، ربما تكون الإحصاءات حديثة جداً ، ولكن هل هى صحيحة جدا ؟ بل إن معلوماتنا عن المناخ المدرسى تكاد تكون قليلة جداً . وما يثير عجباً أن المدارس فى مرحلة ما تكاد تتساوى كلها فيما تقدمه وتعلمه

وفيما ينتظر من تلاميذها . ومثار العجب هنا أن بعض المدارس كثيرة الفصول أو الصفوف ، وبعضها قليلها . مدارس فى المدن الكبيرة ومدارس فى مدن صغيرة ومدارس فى قرى . تلاميذ يذهبون صباحاً ، وأخر بعد الظهر . مدرسة بها فناء ومدرسة لا مكان فيها لقدم آخر . مدارس . . . ومدارس فى أشكال وألوان متباينة ، فكيف يكون الاصلاح ؟

فى مجتمع اشتراكى ديموقراطى من المفروض أن ينال كل التلاميذ خدمات تعليمية متساوية ، والواقع يقول غير ذلك — وهذا واقع للأسف الشديد : ففى مدينة القاهرة — على سبيل المثال — سنجد المدارس فى مرحلة تعليمية واحدة تعمل على مستويات تربوية مختلفة .

ليس هذا تحليقاً فى آفاق عالية أو كلاما من أبراج عاجية ، ولكنه واقع محسوس ملموس ، وهو مؤلم ؟

وحتى إذا اتبعنا هذا النموذج القائم على البحث ثم النمو والتطور ثم الإنتشار ، فإن من المدرسين من يتقبل المستحدثات ومنهم من يرفضها لأنه آمن فى ظل ما يعرفه ، خائف من هذا الجديد .

وهنا قد نقترح تطبيقاً فعلياً للامركزية فى التعليم ، وقد صدرت للمحافظين سلطات رئيس الجمهورية كل فى محافظته . وإذا طبقنا هذا النموذج فى محافظة ما وهى محدودة المساحة أو عدد المدارس ، فإن فرق البحث والنمو التطويرى والنشر يمكنها أن تعمل فعلاً وواقعياً مع المدرسين والموجهين والنظار . وقد يؤدى هذا إلى إشاعة شىء من الطمأنينة ، والأمان فى نفوس القائمين فعلاً بعملية التربية والتعليم داخل المدارس ، ويؤدى التغير التربوى إلى إصلاح مدرسى .

ولن يتم هذا فى سنة أو سنتين . . . ، بل هو أمر يحتاج إلى سنوات

ليست كثيرة ، ولكنها أيضاً ليست قليلة ، فإن طبيعة العملية التربوية تتطلب شيئاً من التمهل وبعداً تاماً عن التسرع . وقد عهدنا تسرعاً فى إنشاء نوع من المدارس ، وذهب المسئول وجاء آخر ، واقفلت المدارس . لكى ينجح تغير تربوى ما ، فلا يجب أن يرتبط بفرد ما ، ولكنه ينبع من عمل جماعى يعمل فى شمولية وتكامل بطريقة علمية موضوعية ، ويترك ليأخذ فرصته الزمنية الخاضعة للتقييم المستمر ، ثم يصدر الحكم . ليس عيباً أن نخطئ ولكن العيب أن نستمر فى ارتكاب الأخطاء .

• المفهوم (أو النموذج) الثانى ، ويرى أن التغير التربوى عملية نمو تنظيمى . وعلى غير الحال فى النموذج السابق فهو يجد التركيز على المدارس كمؤسسات تعليمية بالدرجة الأولى . ويؤكد هذا النموذج على الدور الذى تلعبه المدارس وقدراتها المؤدية إلى تحسن بنّاء مواجهة التغير فى المجتمع ومستجيبة للتوقعات والمطالب •

ويوجه هذا النموذج الانتباه للظروف الداخلية فى المدارس وإلى ما يجرى فيها من حيث

— الرغبة الصادقة فى التجويد والتحسين والنابعة من الاستشعار بعدم الرضا داخلياً وخارجياً (أى من القائمين بالعمل داخل المدرسة أو مما يسمعونه من الخارج) والذى يظهر واضحاً جلياً فى ضعف الكفاية التعليمية

— الاستشعار برغبة قوية . وبقوة بناءة فى التغيير نابعة من العاملين بالمدرسة ، وأن سياسة الدولة تدعم وتقوى هذه الرغبة

— وجود قوى (قد تتمثل فى نقابة المعلمين والمفروض أن تلعب دورا هاماً ، وكذلك قوى من الحزب السياسى الحاكم يقف مع القوى الأخرى فى تعضيد ومساندة وتعزيز الرغبة فى التغيير

— وجود خطة للتغيير تنبع من مصادر عدة منها تقييم المدرسين لأنفسهم لما يفعلون . ويدعم هذا التقييم بآراء وتوجيهات النظار والموجهين

— وجود الاعتمادات المالية التى تمكن مسيرة التغيير من الحركة .

— وفوق كل هذا إتاحة الوقت الكافى للتخطيط والتنفيذ بالاستعانة بالمستحدثات الجديدة والمتطورة فى ميدان التربية .

إن نظرة ناقدة لهذا النموذج ترى فيه رغبة الاصلاح نابعة من المدرسين العاملين فى المدرسة . ومثل هذه الرغبة الداخلية لا يمكن التقليل من أهميتها ، فهى صادقة أمينة داعية إلى عمل بناء ، فيها النشاط والهمة والرغبة . ولأنها لم تفرض من الخارج فالاستمرارية فيها مكفولة ، والفشل فيها غير مثبط ولا يؤدى إلى إحباط ، إذ مع وجود الرغبة فالمحاولات مستمرة .

وقد يصير فى مجتمعنا تزاوج بين النموذجين السابقين ، فقد يحتاج المدرسون إلى مختصين بالبحث للتأكيد على الموضوعية والعلمية . ثم أننا لا نستطيع بين يوم وليلة أن ننتقل من إدارة مركزية إلى درجة عالية من اللامركزية تتيح للمدارس كمؤسسات تعليمية أن تغير وأن تطور .

ومع ذلك فلماذا لا يوضع هذا النموذج برمته وكما هو بالمفهوم المذكور سابقاً ، لماذا لا يوضع محل التجريب فى عدد من المدارس المدعمة بكفاءات ممتازة ، وهم موجودون . . . . . هذا مع الاهتمام بالدعم المالى اللازم ، وهذه محاولة إن فشلت فبقدر غير ضار وإن نجحت فمرحبا بها ، وقد يأتى الفرج التربوى عن طريقها .

فقط كل ما نرجوه إذا كان فى الامكان محاولة تنفيذ هذا النموذج فى بعض المدارس ألا يحارب خفية أو علانية بل يساند على كافة المستويات تعليمية كانت أو غير تعليمية . ثم ألا يقال عنه إنه فكر مستورد ولذلك

فهو خطر أو ضار أو . . . أو . . الخ هو لا يخرج عن كونه محاولة تعاونية صادرة عن أشخاص مؤمنين برسالتهم (. . . كاد المعلم أن يكون رسولا) ودورهم نحو وطنهم ، وهم وإن أكلوا لحوما ودقيقا مستوردا أو ركبوا طائرات وسيارات مستوردة ، ولكنهم فى إيمانهم أخرجوه من أرض وطنهم وتحت شمسها .

لنحاول إذن .

• المفهوم (أو النموذج) الثالث يرى أن التغير التربوى عملية نمو القوى البشرية . وهو يركز على اتجاهات ومعارف ومهارات المدرسين والإداريين والقائمين على العملية التربوية ككل . ويهتم هذا النموذج بهذه القوى البشرية سواء فى إعدادهم قبل توليهم أعمالهم أو أثناء الخدمة لرفع كفاءتهم وقدراتهم الانتاجية . وليس انحيازا من جانبنا القول بأن هذا النموذج باهتمامه بالقوى البشرية المسئولة عن العملية التربوية يمس وتراً رئيسياً شديد التأثير والفاعلية .

ويتطلب هذا النموذج اشتراطات معينة فى القوى البشرية القائمة على العملية التربوية

— قابليتهم السيكولوجية لقبول فكرة التطوير والتغير . هذه القابلية السيكولوجية فيها قول كثير وعمل أكثر حتى تحول عشرات الآلاف من المعلمين والموجهين والإداريين إلى حب عملهم ، وهذه قضية أخرى ليست سهلة ولها مطالب عديدة

— وجود المدرس والناظر والموجه والإدارى الكفء للقيام بعمله على الوجه المطلوب والمرغوب فيه . وهذه قضية أخرى لها أبعاد كثيرة

— وجود الأعداد الكافية وخاصة من المدرسين والمدرسات لسد

احتياجات المدارس التى تزداد أعداد فصولها ازدياداً لا يتناسب مع المعينين الجدد كل عام والذين يوزعون على المدارس وربما يدرسون فى غير تخصصاتهم .

هذا ، وقد صار كلام سابق عن المعلم وإعداده وتدريبه أثناء الخدمة ، وقد ألمحنا إلى بعض المؤشرات أو البدائل . والمسألة تحتاج إلى أكثر من هذا التلميح ، إنها تحتاج إلى دراسة وافية عن الإعداد الرصين العلمى والمهنى والثقافى والإيمانى للمعلم . فى أية مرحلة ؟ ولأى مادة ؟ ونحن هنا نتكلم وكأنما سلمنا بالمراحل التعليمية الراهنة ، وهذا موضوع جدلى وقضية أخرى .

إن المدرس الذى ينفق على إعداده القليل من المال ، سيعطى القليل فى زمن يتطلب من المعلم عطاء كثيراً ، فهو لم يعد مجرد ناقل للمعرفة ، ولم تعد التربية مجرد تحصيل شذرات من المعلومات . . . . . الأمر أجل وأخطر من هذا وذاك .

لهذا ، فالنظرة الإصلاحية شاملة متكاملة . مدرس ماذا ؟ ولمن ؟ ماذا يعمل وكيف يعمله ؟

• المفهوم (أو النموذج الرابع) يرى أن التغير التربوى عملية سياسية ، وقد صار اهتمام بهذا النموذج فى السنوات الأخيرة ، ولكنه لم يسم فى أهميته فى مصر مقارناً بالنماذج الثلاثة السابقة . تكلم المربون فى وقت مضى عن دور المدرسة فى التغير الاجتماعى ، وهل تجرؤ أو تستطيع المدرسة أن تغير المجتمع . وبعيداً عن الجدل الفلسفى فالمدرسة المصرية اليوم عليها مسئولية تأكيد وتعزيز الاشتراكية الديموقراطية كأسلوب ، طريقة للحياة على أرض مصر .

وحتى تستطيع المدرسة أن تحقق هذا فهى تطلب أنه يتحقق لها هى هذا

بالنسبة للتلاميذ وللعاملين فى حقل التربية . تأخذ وتعطى ، وهى لا تستطيع العطاء بدون أن يكون معها ما تعطيه .

هى تتطلع آملة فى خدمات تعليمية أضعاف ما يعطى لها اليوم . ولن يكون هناك انضباط فى الشارع المصرى بأوامر حكومية تنفذ فى الوقت الذى تكون السلطة موجودة فى الشارع أو دار السينما أو ملعب الكرة ، ولكن إذا غابت عاد التسيب وعادت الفوضى إلى الشارع المصرى .

المسألة أجل من تنفيذ أمر خوفاً من سلطة أو عقاب فإذا زال المسبب السلوك الطيب طفا إلى السطح القبيح من العمل . المسألة أن يقتنع الناس بأن الانضباط والنظام فى مصلحة الجميع ولخير الجميع حتى يكون خير فوق الشر ويصير انضباط بدلا من الفوضى .

ويتم الاقتناع على خطوات تبدأ فى عقل الفرد ، والمدرسة واحدة من أهم الأوساط المسئولة عن مخاطبة العقل حتى يفهم ويتفهم وتتكون قناعة بأن هذا أفضل من ذاك . وإذا كان الدين المعاملة . فالسياسة تعنى تنظيم العلاقة بين السلطة الحاكمة وبين أفراد الشعب . وبالقناعة الذكية يعرف الأفراد أنهم هم الذين يحكمون أنفسهم بأنفسهم ، وأن خيرهم فى تعاونهم وانضباطهم واحترامهم للقانون وصدقهم فى عملهم وحرصهم على صيانة مكاسبهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

ووقفت المدرسة حائرة ماذا تفعل ويأتى إليها الأطفال وقد حوت لغتهم ألفاظاً وتعبيرات مبتذلة . كتب مفكرون مسلمون عن سياسة الرجل نفسه ، وسياسة الرجل دخله وخرجه ، وسياسة الرجل أهله ، وسياسة الرجل ولده ، وسياسة الرجل خدمه .

ويقول ابن سينا إن أول ما ينبغى أن يبدأ الإنسان من أصناف السياسة سياسة نفسه إذ كانت أقرب الأشياء إليه ، وأكرمها عليه ، وأولاها

بعنايته ، لأنه متى أحسن سياستها لم يعبأ بما فوقها من سياسات . . . . وليعلم أن له عقلا هو السائس ونفساً أمارة كثيرة المعائب . . . . . ومن حق الولد على والده إحسان تسميته . . . وينبغى لقيّم الصبى أن يجنبه مقابح الأفعال ، وينكب عنه معايب العادات بالترغيب ، والترهيب ، والإيناس ، والإيحاش ، وبالإعراض ، وبالإقبال . . . . . .

عندما نأخذ من الغرب فهذا حق كبير لنا ، وواجب كبير علينا أن نلتفت إلى الوراء منقبين وباحثين فى تراثنا وسوف نجد عالماً مثيراً من النماذج والركائز .